يا صديقى .. كم تساوى

تأليف

أحمد فريد محمود

الناشر

دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة)

عبده غريب

الكتـــــــاب: يا صديقى .. كم تساوى
المـــؤلـــف: احمد فريد محمود
تاريخ النشـــر: ٢٠٠٠ م

النـاشـــــر: **دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع**
عبده غريب
شركة مساهمة مصرية
الإدارة : ٥٨ شارع الحجاز - عمارة برج آمون
الدور الأول - شقة ٦
تلفاكس: ٢٤٧٤٠٣٨ / ت : ٢٤٦٢٥٦٢
التـــــوزيـع: ١٠ شارع كامل صدقى الفجالة (القاهرة)
ت : ٥٩١٧٥٣٢ ص.ب : ١٢٢ (الفجالة)
المـطـــابــع: مدينة العاشر من رمضان
المنطقة الصناعية (C1)
ت : ٠١٥/٣٦٢٧٢٧ ص.ب : ١٢٢ (الفجالة)
رقـم الإيــداع: ٥٠٣٣ / ٩٩
الترقيم الدولى: ISBN
977 - 303 - 164 - 0

يا صديقي.. كم تساوي

إهـداء

غربة الوجدان ..

أكثر مرارة من غربة المكان

أحمد فريد محمود

(١)

الساعة الخامسة واثنتا عشرة مـن الثانيـة.. لا يـزال الغـروب بلونـه الرمادى يحوم مترددا فوق الباخرة المقتربة من الميناء.

الباخرة تتهادى بركابها فوق الأمواج بعـد رحلـة طويلـة بدأتهـا مـن ميناء هـامبورج الألمـانى مـارة بعـدة موانـئ عربيـة وانتهـت بمينـاء الإسكندرية.

الركاب منتشرون فوق سطح السفينة.. البعض يتخـاطف النظـارة المكبرة باحثـا بعيونـه المتلهفـة عن أهلـه وأحبابـه.. وبعض آخـر يشـرئب بنظره متصفحا السماء وكأنه يتبين ان كانت هـى السماء التـى تركهـا منذ ثلاثين يوما عندما بدأت رحلته أم لا.. وهناك من كان منفردا موليـا ظهـره للميناء وكأنه لا يزال فى حديث الوداع مع من تركهم.

استقرت الباخرة بجوار رصيفها ومرة أخرى ينظر "سيف" إلـى ساعته التاسعة وخمس ثوان مساء.

اختلطت المشاعر بالهرج والأصوات.. هناك مـن أسـرع إلـى قلـب الباخرة ليطمئن على سيارته.. وهناك من دفن نفسه وسط حقـائب الآخريـن باحثا عن عمود أباجورته الكبيرة.. وآخر وقف يجتر الغيظ لأنـه لـم يلـتزم بما هو متعارف عليه ولم يضع حوائجه فى صندوق خشبى كبير ليسهل لـه التعرف عليها، أدى إلى تشتيت حقائبه وأشياء أخرى من الأثاث وخلافه.

تحرك سيف إلى داخل صالة الجـوازات.. كـانت خطواتـه متسـاوية

كحركة بندول الساعة.. حقيبته "السامسونيت" الصغيرة لا تهتز فى يده بينما يده الأخرى الطليقة تساير خطواته المنتظمة فيظن به من الوهلة الأولى كأنه أكتع.

كان لسيف قامة رياضية بالرغم من نحافتها الشديدة.. وبشرة بيضاء توضح الفارق الكبير بينها وبين شعره الفاحم القصير.. له أنف حاد وعيون صقرية لا تزوغ كثيرا مما يزيد من نفاذ نظراتها.. بدا لافتا لأناقته غير العادية وبعطره الثمين والغريب.

تقدم بجواز سفره إلى المختص الذى بادره قائلا:

ـ حضرتك كنت مهاجر.

ـ نعم.

ـ حمد الله على سلامتك.. تسمح لى برؤية حقائبك.

ـ ليست لدى حقائب.

ابتسم المختص فى رضى ثم تساءل :

ـ هل وضعتها مع الحاجيات فى صندوق واحد؟

ـ لم أحضر معى شيئا مطلقا غير حقيبتى الخاصة السامسونيت.

رفع الرجل عيناه فاصطدمت بنظرة سيف الثابتة.. مضت لحظة صمت بينهما حاول المختص من خلالها أن يتبين أمورا بخبرته.. اختفى لبضع دقائق قليلة ليعود بعدها برفقه آخر الذى بادة قائلا:

- سيف بك هل أنت فى زيارة سريعة وستعود إلى المانيا.

- لا.

- لابد انك حضرت فى ظروف اضطرارية غير عادية.

- بالعكس.

- لاحظ سيف أن المختص الأول يمرر كفه بآلة صغيرة فوق حقيبته ثم انتبه للثانى الذى قال بهدوء:

- أليس غريبا أن تعود بعد خمسة عشر عاما بدون حقيبة واحدة على الأقل.

- هل هناك قانون يمنع ذلك.

لاحقه الرجل:

- أبدا.. أبدا.. من فضلك افتح الحقيبة.

وباتزان مثير فتح حقيبته ثم تركها بين أيديهما ليقلبا ما بداخلها.. قميص واحد ورابطة عنق.. بيجاما وزجاجة عطر.. ماكينة كهربائية لحلاقة الذقن.. نوتة ملاحظات وبعض الأوراق المصرفية ونوع من السيجار الفاخر..

أغلقت الحقيبة ومد الأول اليه بجواز سفره ثم قالا الاثنان فى لحظة واحدة:

- حمد الله على السلامة ومرحبا بك.

أومأ سيف برأسه شاكرا ثم استدار منصرفا بخطواته الغاية فى

الثبات بينما وقف الرجلان يتابعانه بنظرة مشتركة حائرة.

كانت خطواته تسير كما لو كانت تخضع لخطة مرسومة بدقة.. لا التفاتة ولا لحظة تردد.. كل تصرف يبدر منه تحكمه حسابات غير مرئية فى وجدانه.

نزل من السيارة الأجرة أمام الفندق الكبير.. انتهى من حجز الغرفة.. بدل ملابسه بعد حمام سريع، استلقى على الفراش استعدادا للنوم كأنه انسان آلى.. تخلص من السيجار بدفنه فى المطفأة وقرر أن ينام.. فنام.

فى الصباح كرر نفس الطريقة.. توقف لحظة أمام المرآة.. تأكد من أناقته وقد أمطر بدلته بسيل من عطره الغالى.. توجه لمصرف الفندق حول مبلغا كبيراً إلى عملة مصرية.. انتهى من حساب الفندق.. طلب من أول سائق سيارة أجرة أن يصل إلى وسط المدينة.. توقف برهة أمام إحدى المحلات الراقية لبيع الملابس والهدايا.. مد للبائعة ورقة صغيرة هامسا:

ـ من فضلك أريد هدايا لتلك الأعمار.

تناولتها وهى ترمقه بنظرة سريعة وهى تقرؤها:

.. سيدة فى الستين من عمرها.. فتاة ما بين العشرين والخمس والعشرين عاما..

همست البائعة مستفسرة:

ـ هل لديك طلب معين.



أجاب بلا تردد:

- الجودة والقيمة.. أريدها أعلى مستوى.

تسلم حقيبة الهدايا وفاتورتها.. ثلاثمائة وخمسين جنيهاً.

لمح سيارة اجرة على بعد خطوات قليلة من المحل بعد انصرافه.. دلف داخلها ثم اعتدل فى المقعد الخلفى وقال للسائق:

- هل يمكنك أن تصل بى إلى القاهرة؟

التفت السائق إليه.. تفحصه للحظة.. لم يساومه وكذلك لم يقلق وكأنه قد وقع تحت تأثير نظرته النافذة.. أدار محرك السيارة منطلقا على الطريق فى صمت.

أخرج سيجاراً من جيبه وقبل أن يشعله ألقى نظرة سريعة على ساعته.. الحادية عشرة وسبع دقائق.. جذب نفسا عميقا من سيجارة وراح يتابع ضبابه الكثيف فى استرخاء.

خمسة عشر عاما.. رحلة طويلة مع الغربة.. مات أبوه وهو صبى صغير.. تولى أخوه الأكبر الانفاق عليه ببذخ.. كان أخوه مولعا بالتجارة واستطاع من خلالها أن يكون ثروة طائلة تسببت فى طفرة جذرية لحياتهم الاجتماعية.. لم يبخل عليه قط بأى شىء.. بعد تخرجه من كلية الزراعة طلب أن يسافر إلى المانيا.. أراد ان يحتذى حذو أخيه.. أراد أن يرى الدنيا ويزداد معرفة فى رحلة قد تطول أو تقصر طالما ان هناك من يتكفل بأمره.. لم يمض على سفره الا أسابيع قليلة حتى فوجئ بعدها بزيارة أخيه

ووصلت المفاجأة لقمتها عندما رافقته زوجته الجديدة وهى احدى القريبات والتى تزوجها بعد قصة حب عنيفة لم يرغب فى الافصاح عنها حتى تكتمل مسئوليته نحوه.. كان عشقهما وحبهما واضحا ولكن كان الأشد وضوحا ذلك التناحر والتشاجر المستمر على اتفه الأسباب وكأنهما اتفقا على الاختلاف باستمرار وبدت لتلك الخلافات منافذ عدة.. الغيرة.. القلق.. العناد.. كانا يتشاجران حتى على تحديد مكان التنزه.. كانا نموذجا لأعاجيب الحب.

تعايش معهما عن قرب ثم اتصل بمشاكلهما بعد ذلك من خلال مراسلات أمه إلى أن كانت الكارثة التى راح ضحيتها أخوه وزوجته وهما يتشاجران كالعادة أثناء قيادته للسيارة.. ولقيا مصرعهما ليطويا أعنف قصة حب دامت سنوات قبل الزواج وأشهراً قليلة بعد الزواج.. وبدأت الحقائق تتوالى بعد ذلك حيث اكتشف أن أخاه قد باع كل أملاكه وتنازل عن ثروته لزوجته التى لم يرثها أحد غير شقيقتها الصغيرة والتى كانت فى السابعة من عمرها فى ذلك الوقت ووضعت تحت وصاية أمه.. لم يستطع فى حينها العودة إلى القاهرة فهو يعلم أنه لن يتمكن من السفر مرة أخرى وبدأت تتعمق فى وجدانه ادراكات محيرة.. أدرك أن الحب وحده لا يكفى. فالحب مع الفقر لا يدوم. وكذلك الحب مع المال وحده.. كارثة أخيه جعلته يخضع كل الأشياء والأمور إلى حكم العقل ثم المنطق.. لم يصل إلى هذا القرار الا بعد أن طحنته الحيرة بين رحاها ليالى طويلة.. لم يستطع بادراكه القليل فى ذلك الوقت أن يجد تفسيرا للأحداث المحيطة به.. فكيف

ينتهى الحب الذى يسانده المال إلى تلك النتيجة.. وكيف لم يؤد ذلك العشق إلى أعلى مستوى من التفاهم، وما الذى دفع بأخيه لكى يتنازل عن كل ثرواته لزوجته التى أحالت حياته صراعا دائما لا يهدأ لماذا لم يطلقها ولماذا تزوجها؟.. لابد وأن الحب هو سبب كل البلاء.. وكأن تلك الرابطة القوية ما هى الا عقد اتفاق ضمنى على تحمل العذاب والاستسلام قهرا لجروح المذلة تحت ستار ذلك الاحساس الطاغى.. كل النهايات المؤلمة هى فى الحقيقة كانت لبدايات يغلفها العشق والحب.. فقد تدفع الغيرة للقتل.. والعجز إلى السرقة.. والمطامع المريضة للنفاق.. والتعمق فيه إلى الجنون.. كلها بدايات لذلك الاحساس اللعين.

ومن خلال ذلك المنطق العجيب بدأ يخطط لحياته بحذر.. فتزوج من عاهرة المانية لكى تضمن له الاقامة فى البلد.. كان يراها من العام إلى العام لكى يعطيها المبلغ المستحق حسب الاتفاق الذى تم بينهما.

تنقل من عمل إلى آخر حتى قادته الظروف إلى تخصصه، التحق بالعمل كمشرف على مزرعة كبيرة للانتاج الحيوانى واستطاع من خلال عمله أن يستثمر العلاقات لصالحه إلى أقصى الحدود.. احساسه بالخوف من شبح تجربة أخيه جعلته يفكر فى المقابل أولا قبل العطاء.. وأضافت ظروف الغربة مفاهيم جديدة على حياته وأصبح الانتماء إلى أمه يمثل ارسال المبالغ التى تكفيها وأكثر حتى إنه انقطع عن مراسلتها مكتفيا بما يرد له منها أو من سوسن التى لم تفارق أمه منذ الحادث المشؤوم.. باتت العلاقات التى لا تربطهما مصالح مشتركة مرفوضة تماما لديه. أصبح

عنيفا فى أحكامه وصارما فى قراراته.. وقاسيا على نفسه..

كان ضباب السيجار تلو السيجار قد عبق داخل السيارة حتى أنه لم يتمكن من رؤية وجه السائق الذى تكلم أخيرا قائلا:

ـ نحن على مشارف القاهرة يا بك.. إلى أين أتوجه.

ـ الدقى.

توقفت السيارة أمام بوابة عريضة لمنزل شاهق.. نزل سيف من السيارة بعد أن وضع بجوار السائق مائة جنيه دون أن يتفوه بكلمة، بينما تابع الرجل انصرافه وكل أسارير التعجب قد تجمعت فوق وجهه.

دق جرس باب شقته.. اهتز برهة عندما ظهرت له فتاة فى ريعان شبابها لقد كانت قريبة الشبه من زوجة أخيه إلى حد بعيد غير انها تفوقها جمالا بكثير بادرته متسائلة:

ـ هل من خدمة.

ـ أنت سوسن.

لم تبد تعجبا وهى تقول:

ـ من حضرتك؟

ـ أنا سيف.

هزت رأسها فى تساؤل.. فاستطرد:

ـ قلت لك سيف.. هل تسمحين لى بالدخول.. أين أمى.

وقبل أن تنتبه من دهشتها كان قد تجاوزها إلى الداخل وارتمى نحو صدر أمه التى راحت تمطره بالقبلات والدعوات. بينما انزوت سوسن على بعد خطوات وهى تراقب لحظة اللقاء بعد سنوات الغربة.

وبلا مقدمات انسحب من بين ذراعيها وكأن المدة التى حددها لذلك اللقاء قد انتهت ثم استدار تجاه حقيبة الهدايا وأخرج منها هدية والدته وهى تتمثل فى "تايور" أبيض قد زينت ياقته بورود صغيرة حمراء.. تقدم اليها قائلا بفتور:

ــ أرجو أن تروقك هديتى يا أمى.. إنها من أرقى محلات الاسكندرية.. سيطر الصمت فجأة.. اختلطت مشاعرها ما بين فرحة اللقاء بابنها ورجفة البكاء على فقيدها..

لم يجد صعوبة ليدرك ما يجول بفكر أمه وقد هاله السواد القاتم الذى تتشح به وكأنه قد تبين ملابسها لتوه فقط.

وبنبرة حنون همست الأم قائلة:

ــ أنت أغلى هدية يا ولدى.. ولكن.. كما تعلم فأنا لم أتخل عن اللون الأسود منذ وفاة أخيك.. ولن أتخلى عنه إلى نهاية العمر.

انشغل عنها للحظة وهو يخرج هدية سوسن ثم أجاب:

ــ الأحزان.. واللون الأسود لن يعيدا الزمان.

ــ إنه ابنى وسأعيش على ذكراه.. وانت أملى ومن أجلك أعيش الحياة

تقدم نحو سوسن وهو ممسك بفستان أنيق.. توقف برهة تفحصها جيدا من خلال نظرة طويلة وكأنه يتأكد ان كانت هى الأخرى ترتدى الأسود ام لا.. وقال:

- أراك تتخلين عن تلك التقاليد ولم تلتزمى بارتداء اللون الأسود على شقيقتك.

تناولت منه الفستان وفى عينيها نظرة دهشة لتصرفات ذلك الابن العائد بينما حسمت الام الموقف قائلة:

- لابد وانك مرهق يا ولدى.. وعليك أن تستريح من عناء السفر.

- أنا لست مرهقا.. لقد أقمت بالأمس بأحد الفنادق.. أريد أن أقترب من أحوالكما.. كيف تمضيان أوقاتكما.. وما هى طبيعة حياتكما.

تراجعت الأم برأسها وهى تجلس على المقعد المواجه له وكأنها تستعيد من ذاكرتها احداث سنوات طويلة.. ثم قالت من خلال تنهيده عابرة:

- نحن فى أحسن حال والحمد لله.

ثم رمقت سوسن بنظرة حب مستطردة.

- ابنتى سوسن تملأ على حياتى.. لا أتصور كيف ستكون حياتى بدونها انها تقوم برعايتى بحب لا نظير له بالرغم من ارهاقها فى العمل..

أما عن الآخرين فنحن علاقاتنا بهم محدودة.. وربما أقربهم إلى قلبى الأستاذ عادل شرف..

قاطعها غير مبال:

ـ من عادل شرف؟

التقت مرة أخرى نظرتها مع عين سوسن ثم أجابت:

ـ ألا تعرف عادل شرف.. اليس صديقك.. فبالرغم من انقطاعك عن مراسلته بعد سفرك بخمس سنوات إلا أنه لم ينقطع قط عن زيارتى ليطمئن على أحوالى.

ولاول مرة يلتفت إلى سوسن بنظرة ذات مغزى أحست بها تمزق كبرياءها ثم قال بجفاء:

ـ الا لهذا السبب فقط تكون زيارته.

وأدركت العجوز بما يدور فى خلده فسارعت قائلة:

ـ الاشراف كثيرون.. والعلاقات بين الناس ليست بالضرورة ان تكون مغرضة.

ـ ماذا يعمل الآن عادل.

قالت بفخر وكأنه احد ابنائها:

ـ انه محام شهير الآن.. انسان على خلق ومبادئ.

لم يجب.. واشعل سيجاره الضخم وما أن انتهى من عدة انفاس حتى التفت ثانية إلى سوسن قائلا:

ـ أراك لا تتحدثين كثيرا يا آنسة سوسن.

تقلصت اساريره عندما اجابت قائلة بهدوء:

ـ أحاول أن أتعرف عليك من خلال حديثك.

ولكنه سرعان ما تمالك مشاعره وادعى الابتسامة وهو يقول:

ـ هل عملك مرتبط بالتحليل النفسى.. ام..

قاطعته وهى تبادله الابتسامة الجامدة.. وقالت:

ـ انا مرشدة سياحية.

فجأة انطلق ضاحكا وهو ينهض من مكانه ثم ردد وهو يشير اليها بأصبعه:

ـ إذن ستكون بيننا مصالح مشتركة.. سأحتاجك لتنقلاتى على الأقل لفترة وجيزة إلى أن اعتاد على الحياة هنا.

استدار مستأذنا ليستريح بعض الوقت..

حاولت الأم أن تخفى عن سوسن نظرتها وكأنها تخشى أن تفضحها عيونها بما يجيش بصدرها.. أيقنت الفتاة بما يجب أن تقدم عليه فبادرت بالاستئذان هى الأخرى رحمة بالأم.. وكذلك بنفسها من ذلك الموقف الغريب.

توالت الأيام لتؤكد حقائق كانت مبهمة منذ قدومه.. كانت الأم تتابع تصرفاته وهى مستسلمة لأنات حسرتها فى صمت.. كانت تراه انساناً آخر غير وليدها.. خمسة عشر عاماً استطاعت ان تميت احاسيس كثيرة أهمها احساسه بالانتماء..

بدا متبلدا.. لا يتنفس الا بالأرقام ولا يخطو الا بحساب ولا يتحدث

الا لمصلحة ما وكأنه انسان آلى لا يتعامل الا مع المحسوسات لا يعترف بالأحاسيس الانسانية.. كان نافرا مستفزا.. لا فرق عنده بين هذا أو ذاك.. المهم المقابل حتى فى جلساته مع أمه لم تكن طلبا للحنان والمودة بقدر ما كانت محاولة لقطع الوقت والملل.

حاولت الأم الاقتراب من ابنها ولكنها فى كل مرة تضيف إلى عذابها جرحاً جديداً من خلال صدماته المتكررة.. فآثرت التوقف عن محاولاتها مضطرة وهى تطوى آلامها فى انكسار وكأنها قد كتب عليها ان تفقد ولديها احدهما بالموت.. والآخر بالصمت.

اما سوسن فقد احست بالارتياح لرحلتها المفاجئة مع مجموعة سياحية وكأنها هى الأخرى تحاول الهروب من المواجهة.. أى مواجهة قد تؤدى إلى رد فعل يفسد حياتها الهادئة مع الام التى تمثل كل شىء فى دنياها.. فقد ولدت يتيمة الابوين ولم يعد لها من خيط الانتماء سوى تلك المرأة العظيمة التى قامت برعايتها فأحسنت نشأتها وتعليمها كما انها صانت أموالها التى ورثتها عن اختها مما جعلها لا تطالب برفع الوصاية بعد بلوغها سن الرشد.. ولذلك احست بالارتياح بالابتعاد عنه.. وعن نظراته المستفزة اليها وكأنه يضمر لها الكثير من الأمور.. وهى تعلم انها سوف تعانى اكثر فى محاولاتها.. لاكتشاف ما يضمره.. كما تعلم أنها لن تستطيع مواصلة الهروب إلى الابد وعليها أن تواجه الموقف إلى النهاية.. وقد بدأت اول خيوط المواجهة بمجرد عودتها من الرحلة حيث بادرها قائلا بفتوره المعتاد:

ـ لقد اضعت سبعة أيام دون ان افعل شيئا.. انا انتظرك حسب

الاتفاق الذى بيننا.. ترى هل لديك الوقت لتنفيذه.

أجابت بتودد:

ـ أنا مستعدة من الآن.. يمكننا أن نبدأ بمنطقة الجيزة والأهرامات ثم القلعة وبحيرة قارون وكذلك يمكننا أن نرتب رحلة إلى أسوان والأقصر.. وايضا يمكننا أن..

ولكنها توقفت أمام قهقهته العالية التى بدرت منه بدون مناسبة وقاطعها قائلاً:

ـ الآثار موجودة منذ سبعة آلاف سنة، وستظل موجودة إلى نهاية الحياة.. فلدينا متسع من الوقت لها.. اما الأماكن الاستثمارية والانفتاحية التى أقصدها فلن تنتظرنى طويلا.. الحياة فرص.. وانا أريد أن أستثمر أموالى فى مشروعات تدر على بالربح الوفير.. فان لم ابدأ الآن فسوف يسبقنى غيرى.. و ..

اضطرت للتدخل فى حديثه قائلة:

ـ هذا بعيد عن مجالى يا أستاذ سيف.

ـ أنا لم أطلب منك معاونتى.. أنا طلبت مرافقتى بالتحديد.

وأمام البوابة الخارجية للمنزل تقدم نحو سيارة جديدة "بيجو" ثم التفت اليها قائلا:

ـ لم يكن ممكنا أن أضع نفسى تحت رحمة سائقى التاكسى.. فاشتريتها منذ يومين.

اجابت وهى تجلس بجواره داخل السيارة.

ـ يبدو أن تحركاتك كلها مدروسة.

لم يُجبْها وانطلق على الطريق بعض الوقت ثم تساءل:

ـ إلى أين.

ابتسمت باندهاش:

ـ المفروض أن أسألك.

ـ أريد شراء قطعة أرض زراعية لأنشئ عليها مشروعاً ما.

ـ إذن لنبدأ بالمناطق القريبة من القاهرة.. اتجه إلى اليسار من فضلك.. لم يكن الوقت مملا حيث اكتشفت أنه يجيد ادارة الأحاديث.. فحدثها كثيرا عن المشاريع التى يمكن أن تدر ارباحا وفيرة وعن أهم الاكتشافات العلمية والتقدم التكنولوجى.. حدثها عن شتى الفنون وأحدث الاشرطة الموسيقية.. كما حدثته هى عن عظمة الآثار وجمال الطبيعة وعن شواطئ البحر الأبيض والأحمر وعن عظمة النيل وكذلك الأصوات الشابة الفنية التى ظهرت فى مصر واحدث المؤلفات الأدبية.

وبدأت الألفة تزحف تدريجيا بينهما وهما ينتقلان من منطقة إلى أخرى حتى بدأت الشمس تلملم أشعتها وقررا العودة على أن يواصلا رحلة البحث فيما بعد. وشجعتها الأحاديث الودية على أن تفاجئه قائلة:

ـ لم تحدثنى عن حياتك فى المانيا.. كيف استطعت الاغتراب طوال هذه المدة الطويلة وماذا كنت تعمل.. وكيف كنت تحيا.. وهل..

ـ انا لم أفعل شيئا شاذا.. هناك آلاف غيرى.. البعض ينجح والآخر يفشل ولكن الجميع يتساوون فى رحلة العذاب.

ـ أقصد.. الم تتزوج.

ـ تزوجت.. من أجل أن أضمن اقامتى.

قالت ببراءة:

ـ حقا.. وأين هى.

ـ لقد انهيت العقد بينى وبينها عندما قررت العودة.. وتصافينا فى كل حقوقها.

نظرت اليه فى شرود.. وواصل مستطردا:

ـ كانت عاهرة.

فلتت صرخة من فمها:

ـ ماذا؟

لاحقها بابتسامة باردة.

ـ لا تندهشى.. فأنا لم المسها طوال الخمسة عشر عاما.. لقد كان مجرد اتفاق لأضمن اقامتى.. وكنت فى نهاية كل عام أذهب اليها وأعطيها أجرها كزوجة.. و ..

التفت نحوها مستظرفا:

ـ ببساطة استأجرت زوجة.

تملكها الذهول من أسلوبه وسرحت بنظرتها إلى الطريق فى صمت كأنها تخشى الحديث معه حتى لا تسمع المزيد من كلماته الجريئة التى تخدش كبرياءها قبل حيائها.

فالمرأة بالنسبة اليه لا تغدو أكثر من شقة للايجار أو عقد اتفاق لسيارة.. ولم يستطع سيف أن يخفى فضوله وراح يختلس النظر اليها بين الآونة والأخرى.. فهى جميلة.. بل رائعة الجمال.. لها وجه مستدير يحيط به خصلات شعرها القصير وعنق شامخ وعينان بهما انسياب طفيف من الاطراف وانف دقيق يكاد يعلو فوق شفتها الرفيعة فى استيحاء.

أراد أن يلفت نظرها وكأنه قرر أن يتفحص كل شىء فى وجهها.. فهمس قائلا:

ـ أراك شاردة.

التفتت اليه فغاص بنظرته داخل عينيها العسليتين:

ـ ابدا.. ولكنى اتساءل فى نفسى.. هل ممكن ان يقيم الانسان الأمور بمثل طريقتك.

ابتسم فى زهو:

ـ الانسان الناجح فقط.. والانسان الذى يقدس عقله أيضا.. والذى لا يحتكم الا إلى المنطق.

قالت فى تحد مستتر:

ـ والعلاقات الانسانية.. والمشاعر التى.

قاطعها قائلا.

ـ لاعطاء بلا مقابل.

ـ والصداقة المجردة من كل شيء.

ـ إما أن أحدهما اذكى من الآخر فيستثمرها لصالحه.. واما انهما الاثنان أغبياء فتكون علاقة تافهة لا معنى لها.

ـ ألم تتعامل مع قلبك قط.

ـ تقصدين الحب مثلا.

أومأت برأسها دون أن تتكلم.. فأردف متسائلا.

ـ ألا يمكن أن يحب الانسان بعقله.. على الأقل يمكنه أن يعيد حساباته فى حالة الفشل.. أو يتجنبه بقدر الامكان.

اجابت غير مبالية:

ـ ألا ترى أن أفكارك غريبة.

قال بنبرة منتصرة:

ـ الا ترين أنت أننا وصلنا إلى المنزل دون ان نشعر بالطريق.

نزلت من السيارة ثم توقفت قائلة:

ـ سأسير وحدى بعض الوقت وسألحق بك عند خالتى.. فأنا أشعر بالاختناق.. اطال نظرته اليها للحظات ثم عاد لفتوره قائلا:

ـ اذهبى إلى أقرب صيدلية ستجدين دواء لذلك.. هذا خير لك من السير على غير هدى.

لم تعلق واستدارت منصرفة دون أن تلتفت نحوه.

(٢)

الساعة الثامنة والنصف مساء وخمس دقائق.

توقف سيف لحظة أمام اللوحة المعدنية المرفوعة على جدار مكتب عادل شرف.. المحامى بالاستئناف والنقض.. دار بعينه حول الردهة الواسعة.. لم يتوقع ذلك الحشد من العملاء.. أو كأنه كان يأمل أن يراه فى غير تلك الحالة المرموقة.

تجاوز الجميع غير مبال بنظرات الآخرين ولا بهمهمات الاستنكار.. قادته خطواته إلى مكتب جانبى.. استوقفه الشاب الجالس وراء المكتب قائلا برقة:

- من فضلك.. عادل بك مشغول الآن.

- أبلغه أنى حضرت.. انا سيف العشرى.

اجاب الموظف بلباقة

- هل يسمح وقتك بالانتظار بضع دقائق حتى اتمكن من إبلاغه.. يمكنك الجلوس فى صالة الانتظار إذا أحببت.

التفت سيف إلى الخلف ثم استدار قائلا بتهكم:

- ألا ترى أن المكان لا يتسع لقدم.. يبدو أن الناس بدأت تأكل بعضها.. تحول الشاب من وراء مكتبه وهو يقول ببشاشة:

- يمكنك أن تنتظر فى حجرة السادة المحامين.. تفضل يا سيف بك.

لـم يتحـرك.. تفحصـه برهـة كأنـه يقيده بسلاسـل نظراتـه ليسـيطر عليه.. تناول من سترته ورقة نقدية.. عشـرة جنيهـات.. تقدم نحـو الشـاب المذهول ومدها اليه قائلا فى اصرار:

ـ ليس لدى وقت لتلك المراوغة السقيمة.

أزاح الموظف النقود بعـد أن اندفعت لمحـة غضـب علـى وجهـه.. ثـم قال:

ـ لا أعتقد أن هذا الأسـلوب سـيفيدك أيضـا.. وسـأحاول أن أتناسـى ذلك التصرف منك على الأقل أمام عادل بك.

ضغط سيف على الورقة النقدية بشدة كأنه يحاول أن يفتك بها لانهـا فشلت فى تحقيق مأربه.. تراجع بهدوء واستقر على مقعد منفرد فـى نهايـة الحجرة وهو لا يزال مسلطا نظرته القاسية نحو الشاب الـذى ادعـى بـدوره انهماكه فى بعض الأوراق التى أمامه.

روادته فكرة اقتحام المكتب الا أنها انطفأت فجأة أمام كلمات الشـاب مـن خـلال التليفـون الداخلـى محدثـا عـادل شـرف وهـو يبلغـه باسـم ضيفـه المتشنج.. لم تمض غير لحظة حتى ظهر عادل من وراء الباب مهـلـلا فـى ترحاب حقيقى:

ـ مستحيل.. سيف بك العشرى فى مكتبى.

واندفع تجاهه بعد أن تردد لحظة أمام بصمات الزمن التى استقرت

على صورته بعد سنوات الغربة..

لم يكن سيف متحمسا للهفة الصديق بقدر ارتياحه لارتباك الموظف الذى أخفض نظرته فى اعتذار صامت. انتبه على صوت عادل:

ـ تفضل يا سيف بك.. ادخل.. إنه ليوم سعيد حقا.

تقدم إلى الداخل.. فوجئ بامرأة تجلس أمام المكتب.. لم تسترع انتباهه بالرغم من مظهرها المتأنق للغاية.. راح يجوب بنظرته ارجاء المكتب الفاخر.. استطرد عادل قائلا:

ـ ناريمان هانم اقدم لك سيف بك العشرى صديق الصبا والدراسة ثم التفت إلى سيف قائلا:

ـ ناريمان هانم صاحبة أكبر مصانع للبلاستيك.. و .. والمكتب هنا يقوم بشؤونها القضائية.

وبدأ الحديث يدور بينهم فى ألفة انتقلت بهم من موضوع إلى آخر.. لم يجد عادل شرف مفرا من أن يرفع سماعة التليفون هامسا:

ـ من فضلك يا أستاذ كمال اعمل على إلغاء مواعيد اليوم.

ثم عاد يلحق بركب الموضوعات المختلفة.. ومن بين كل اقصوصة وأخرى كان سيف يستزيد فى صمت معلومة جديدة عن صديقه.. ادركه وسيما متأنقا.. لبقا بغير تحذلق مرنا بلا تفاهة.. مهذب الالفاظ واجتماعى المعاشرة.. كان أكثر ما استلفت نظره تلك الشخصية الجذابة التى يصعب

على أى انسان مقاومتها.. خاصة إن كانت امرأة.. لم يستطع التخلص من صورة سوسن التى فرضت نفسها على مخيلته عندما وصل لتلك الملاحظة كما لو كان يؤكد لنفسه أن سوسن من المحتم قد سقطت تحت تأثير تلك الجاذبية. وبهدوء يطوى أنوثة فياضة تساءلت ناريمان هانم قائلة:

ـ وياترى ستكسب مصر رجل أعمال ناجح.. هل ستستقر أخيراً يا سيف بك.

تدخل عادل شرف مبتهجا:

ـ بالطبع.. أعتقد أنه قرر العودة نهائيا.. فمهما كان هو فى بلده ابتسم سيف بفتور ثم أجاب:

ـ أى مكان تستقر فيه هو بلدك.. المهم الاستقرار.. وأن تجد ما تفعله.

قالت ناريمان بلا تردد:

ـ انت صريح يا سيف بك.. وجرىء.. أنا.

ولكنه يقاطعها دون أن يلتفت إليها.. موجها حديثه إلى صديقه قائلا:

ـ فى الحقيقة لقد جئت اليك لأوكلك عن أعمالى القادمة.. فأنا أعلم أننى سأكون فى حاجة اليك عند تعاقداتى.

حاول عادل أن يكون لطيفا وهو يجيبه.

ـ ألهذا فقط جئت إلى.

ـ الا يكفى ثقتى فيك.

ومرة أخرى تتدخل ناريمان عن عمد قائلة:

ـ حقا أنت تثير إعجابى بك فى كل كلمة.. يا ترى ما هى مشروعاتك القادمة.. أم أنك لا زلت تفكر.

تفحصها بهدوء وقد جذب انتباهه شعرها الأحمر وعيناها السليطتان.. قال:

ـ أنا لا أفكر كثيرا.. وإذا فكرت فلا اتحدث عن افكارى.. ولكنى قررت بالفعل ان انشئ مزرعه كبيرة وحديثة بها معامل لانتاج البيض افلتت منها صيحة على درجة من الميوعة:

ـ آه.. كم كانت أمنيتى فى السابق أن أمارس تجارة تربية الأبقار.. وانتاج الالبان.

قال سيف ببرود:

ـ مشروعى هو معامل لانتاج البيض.. ثم.. ما الذى جعلك لا تقدمين على مشروعك طالما أنه كان أمنية ولا يزال.. كما أرى.

أجابت بعد تنهيدة دافئة:

ـ الظروف.. الظروف يا سيف بك.. فمنذ وفاة زوجى وأنا ادير كل املاكى.

بمفردى.. المصنع يأخذ كل وقتى.. والبنوك تبتلع أغلب فكرى

بدا سيف متحزلقا وسمجا وهو يقول بدهاء:

ـ وعادل بك.. ألا يجد الوقت لمعاونتك.

وقبل أن تتفوه ناريمان بكلمة واحدة لاحقها عادل شرف قائلا:

ـ عادل بك يا سيدى لا يفهم فى مثل تلك الأمور.. و ..

قاطعه سيف بصفاقة:

ـ أنا أفهم.

سارعت ناريمان قائلة:

ـ إذن اتفقنا.

تردد برهة قبل أن يتساءل:

ـ على ماذا..

اعتدلت فى جلستها وهى تشعل سيجارة بهدوء ثم قالت:

ـ يا سيف بك.. أنا امرأة قد تعلمت من الواقع والحياة الكثير.. لا وجود للخيال فى حياتى.. ولا أعترف بالأمانى المعلقة.. لا أميل للتردد ولا أمارس أنصاف الحلول فى تصرفاتى.. والصعب يا صديقى لا يواجه الا بالصعب.

ـ أشعر وكأنك تتحدثين عن نفسى.. و ..

قاطعته من خلال ضحكة باردة.

ـ ألم أقل لك إننا اتفقنا.

حاول عادل شرف أن يتدخل فى الحديث لكى يذكرهما بوجوده ولكنه تراجع حفاظا على ماء وجهه عندما لم يلتفت اليه أحدهما.. بينما واصلت ناريمان قائلة:

ـ ما رأيك يا سيف بك فى موعد التاسعة مساء غدا عندى بالمنزل.

لم يتردد وهو يجيب:

ـ فى الحقيقة أنا لا ألبى دعوات بلا هدف.

ـ أنا لا أخفى اعجابى بأسلوب حياتك.. وعلى كل حال سأكون واضحة معك.. لماذا لا نحقق أهدافنا مشاركة.. أنت تنشئ معامل لانتاج البيض وأنا أحقق أمنيتى فى تربية الأبقار ويكون المشروع مناصفة.. وذلك يتوقف على رأس المال الذى معك.. أم انك

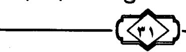
لاحقها فى غرور:

ـ رأس المال لا يمثل بالنسبة لى أى مشكلة.

ـ أعتقد أنه سيقترب من النصف مليون جنيه.

غاص فى عينيها من خلال نظرته فى محاولة جريئة لكشف ما يدور فى رأسها ولكنه واجه نظرة أكثر قوة وأشد تأثيرا.. نهض متكبرا وهو يقول:

ـ قبلت الدعوة.. سأكون عندك فى التاسعة بالضبط



اتسعت ابتسامتها قائلة:

ـ وهل تعرف عنوانى؟

التفت قبل انصرافه إلى عادل شرف.. ثم همس:

ـ لا أعتقد انى سأحضر بمفردى.

قضى سيف العشرى فى حجرته ساعات طويلة لا يبارحها.. كان يفكر بعمق كبير فى أدق التفاصيل.. لم يستطع أن يواجه توتره إزاء القرار الذى اتخذه.. المشروع سيدر عليه ربحا وفيرا، ولكن رأس ماله لا يكفى بأى حال وعليه أن يخطط لكشف أوراقه أمام والدته.. وسوسن.

الليل يتأهب للرحيل.. والأوراق تتساقط الواحدة تلو الأخرى بعد أن امتلأت صفحاتها بالأرقام والحسابات.. انها صفقة العمر.. كان يعلم أن ناريمان هانم جادة فى حديثها.. كما انها قريبة إلى حد كبير من أسلوب حياته.

فى الصباح بدا وكأنه لم ينم طوال ليلته.. لم تجد أمه صعوبة فى اكتشاف أسارير الأرق التى ارتسمت على وجهه.. وما إن فاتحته فى الأمر حتى انطلق مسترسلا فى محاولة لاقناعها بالفكرة.. مستغلا كل الأساليب من مهارة ولباقة فى الحديث.. و .. من استجلاب تعاطفها وحنانها.

أمواله لا تكفى نصيبه فى المشروع.. وهو يعلم أن سوسن لديها ما يسد ذلك العجز.. وهى لم تمس ميراثها حتى الآن.

قال بثقة متبجحة:

ـ أنا أعلم أن سوسن لن تعترض.. أو تتذمر.

أجابت الأم باصرار..

ـ رأيها أولا.

ـ وأين كان رأيها منذ وفاة أخى؟

ـ أتريد أن نقابل طيبة قلبها وحسن أخلاقها بالتنكر لها ولوجودها.
حاول أن يمتص انفعالها قائلا:

ـ أنا أقصد يا أمى.. فأموالها ستستردها مع اضافة أرباحها.. ويمكنها أن تشارك فى متابعة الحسابات.

أجابت بصدق وطيبة:

ـ فى إمكانك أن تكون أموالها هى أموالك.

.. مضت لحظة صمت مكبوتة إلى حد الانفجار.. فهو أدرك ما تشير اليه أمه وشع من نبرة صوتها انها ليست مجرد فكرة بقدر ما هى أمنية.. وما كاد يواصل مراوغته حتى توقف عند دخول سوسن قائلة وهى مبتهجة:

ـ أحمد الله انى وجدتك.. لقد حصلت على عنوان سمسار للأراضى ممتاز.. لم يدع لها فرصة الاسترسال وفاجأها قائلا:

ـ آنسة سوسن انا قررت الدخول فى مشروع كبير مشاركة.

ـ هذا أعظم خبر سمعته منذ زمن بعيد.

قال بعد أن رمق أمه بنظرة سريعة:

ـ رأس مالى غير كاف.. وكنت أريد معاونتك.

قالت بجدية:

ـ هذه أمور تملك خالتى القرار فيها.. فانا لا أملك شيئا.

همس فى محاولة لاستمالتها:

ـ على شرط أن تتركى عملك وتتفرغين للاشراف على الحسابات.. وأعدك بأن أعيد اليك أية مبالغ سأقترضها منك بالاضافة للأرباح.

صمت برهة استرد فيها أنفاسه المضطربة ثم تساءل فى توجس: هه.. هل توافقين..

اقتربت من خالتها بخطوات ثابتة.. ثم التفتت إليه قائلة بحزم:

ـ أوافق.. ولكن على شرط واحد.

لاحت علامات الأمل فى نظرته متسائلا:

ـ ما هو.. فأنا..

قاطعته وهى لا تزال محتفظة بصرامتها:

ـ أن أراك مبتسما مرة واحدة.

انفجرت أساريره وهو يردد من خلال ضحكة بدت غريبة عليهما.

ـ ها أنا قبلت الشرط بلا تردد.

تقدمت نحوه بخطوة:

ـ هل قبلت لأنى وافقت.. أم لأنى طلبته منك.

قتل الارتباك ابتسامته ثم تأهب للانصراف قائلا:

ـ للاثنين.

ثم تركهما. وهما يتبادلان نظرة حائرة من تصرفات ذلك العائد النافر من كل شىء حوله.

كان سيف يعلم جيدا أن الأمر لن يكون سهلا، وأنه لابد أنه سيواجه الكثير من العقبات.. ومن أهمها موقف عادل شرف الذى ما زال غامضا بالنسبة اليه.

لم يشعر بالارتياح نحوه منذ الوهلة الأولى.. كان يخشاه دون أن يعرف السبب. قد يكون من أجل أنه أكثر الناس قربا لناريمان هانم.. أو لأنه على علاقة غير واضحة ومفهومة مع سوسن.. أم لأنه يعلم الكثير عن حقائق الأمور وما يتعلق بماضى الجميع.. وماضيه هو بالذات.

مضى يقطع الطريق بسيارته على غير هدى.. حاول أن يستعيد ثقته فى نفسه بأن يطرد مخاوفه من تفكيره.. الوقت يسرقه والموعد اقترب.. كان عليه أن يستعد لكل المفاجآت وأن يرتب خططه لكافة الاحتمالات.. حدد وجهته إلى مكتب عادل شرف.

وهناك استطاع ببراعة أن يتقمص صورة جديدة مغايرة تماما لما يدور فى اعماقه وبدا متفائلا بشوشا وهو يبادره قائلا:

ـ لقد حضرت قبل الموعد لكى اتمكن من محادثتك على انفراد فى بعض الأمور.

أجابه بفتور:

ـ أنا سعيد لثقتك بى.

ـ أنت تعلم أن المشروع سيتكلف الكثير.. وأنا..

قاطعه وكأنه يتربص لعجزه:

ـ أنت غير ملتزم بشىء.. يمكنك التراجع.. فالموضوع كان مجرد اقتراح فقط.

امتص سيف استفزاز الآخر له.. وقال بهدوء مثير:

ـ أنا لم أعتد التراجع فى أى شىء اتخذت قرارا فيه.. حتى ولو كان الثمن حياتى ولكنى جئت أحدثك كصديق وليس كمحامٍ لناريمان هانم.

نظر عادل شرف اليه محدثا نفسه فى لحظة صمت متوترة:

.. ترى ماذا يدور فى رأسك يا سيف.. لقد سمعت عنك الكثير.. عن جفائك وأنانيتك.. عرفتك من قبل غريباً ومثيراً. ولكنى لم أتصور بأنك إلى هذا الحد من الدهاء والمكر.. ليتنى أعرف ما يكمن وراء هذا الوجه الجليدى.

ثم قال مستسلما:

ـ لقد أقلقتنى يا سيف بك.. هل هناك شىء فى الأمر.

ـ لا شىء.. لكن.. أنت بالتأكيد تعلم موقف سوسن من ميراث أخى.

استنفر انتباهه وهو يقول:

وما شأن آنسة سوسن فى الموضوع.

ـ فى الحقيقة قد أحتاج معونتها.. و ..

انشغل برهة وهو يشعل السيجار ثم أردف بلا مبالاة.

ـ وقد حدثتها فى الموضوع وهى لا تمانع بالطبع.

ـ وما شأنى أنا..

ابتسم ببرود وهو يقول:

ـ أنت شأنك عظيم يا عادل بك.. ثم اننا جميعاً سنكون معاً فى كل شىء.. ورمقه بنظرة تكاد تنطق بمعان كثيرة .. واستطرد:

ـ سأكون أنا وناريمان هانم شركاء .. وأنت وآنسة سوسن رقباء. وقبل أن يتفوه عادل شرف بكلمة واحدة لاحقه سيف قائلا وهو ينهض:

ـ أعتقد أن الموعد قد اقترب.. وأنا أحرص دائماً أن أصل فى موعدى.

وفى السيارة طواهما الصمت طوال الطريق.. كلاهما كان مستغرقا فى تفكيره وكلاهما كـان غارقـا فـى أعماقـه باحثـا عـن أقـرب صـورة لمـا

يخبؤه القدر. الا أن سيف العشرى كان أكثر منه اطمئنانا وثباتا.. فهو يثق فى قدرته للتأثير على الآخرين.. كما أنه نجح فى القاء الطعم لعادل شرف.. استطاع أن يكبله باقحام سوسن تحت دائرة المشروع.. لم يكن يعنيه طبيعة العلاقة التى بين سوسن وبين عادل بقدر ما شعر بالارتياح لأنه استطاع أن يستقطبه ولو لبعض الوقت.. أو كل الوقت.

التاسعة بالضبط..

بدت ناريمان هانم فى أروع صورة وهى تستقبلهما.. كل شىء حولها كان يفوح منه رائحة الثراء الشديد.. استفلت نظر عادل شرف انها ترتدى فستانا يكشف عن كثير من مفاتنها على غير العادة.. وأنها تبدو أكثر حيوية ونضارة.. كانت تدور بالحديث والحركة حول سيف العشرى وكأنها تقيده بسلاسل خفية لن ينتبه اليها الا بعد ان يشعر بالشلل التام.. حلقت بعيدا عن الموضوع الذى حضر من أجله.. وعلى غير المتوقع استجاب سيف لمراوغتها بصورة جعلت من عادل شرف أكثر يقينا بأنه لم ير فى حياته انسانا فى مثل دهاء صديقه لما دفعه لكى يقول:

ـ لندخل فى الموضوع حتى لا يسرقنا الوقت.

فوجئ بأنهما يضحكان فى وقت واحد كأنهما على اتفاق ثم قالت:

ـ يا عزيزى عادل.. الوقت لا يسرق الا الغافل.. أما مثلى وأعتقد أيضا مثل سيف بك.. الوقت بالنسبة لنا ما هو الا وسيلة نمتطيها لتحقيق كل أهدافنا.

أجاب باستخفاف:

ـ لا أعتقد هذا.

ويتدخل سيف قائلا له:

ـ بل تأكد من هـذا.. فالانسـان الـذى لا يعرف مـاذا يريـد عليـه أن يترك المكان لغيره.

ولأول مرة يخرج عن فتوره وهو يجيبه قائلا:

ـ أتظن يا سيف بك ان الحيـاة مجرد مقعد يجلس عليـه انسـان ثـم يتخلى عنه لآخر.. الحياة على ما أعتقد مفهوم آخر غير ذلك..

قاطعته ناريمان هانم وهى تمد بكأسها إلى سيف ثم قالت:

ـ أنت مثلا.. القضايا أمامك اما أن تكسبها أو تخسرها.. كذلك الحياة.

ـ أنا أكسب القضايا بحكم القانون والمنطق.

اندفع سيف قائلا كأنه يحاصره:

ـ وكذلـك الحيـاة.. يحكمهـا شـىء واحـد.. ومـن خلالـه تسـتطيع أن تتحكم فى كل شىء.. المال.. الامكانيات الذهنية.

أحس عادل بأن سيف يتهمه بالغباء فقال وهو يكتم غيظه:

ـ وهل تعتقـد انـك سـعيد.. بـالرغم مـن انـك تملـك المـال والمقـدرة الذهنية كما أراك الآن.

التفت سيف نحو ناريمان هانم فى نظرة هادئة ثم أجاب:

ـ عندما أقرر أن أكون سعيدا.. سأفعل.

ـ حتى الحب.

وهنا انطلقت ناريمان هانم فى ضحكة من الأعماق وقد بـدت وكـأن الخمر هاجمت عقلها وصاحت فى دلال مزق وقارها:

ـ الحب وحده.. لا يكفى.. يا عزيزى القاضى.

وكالصقر انقض سيف العشرى بكلماته وهو فى صورة جادة موجها حديثه لعادل شرف قائلا:

ــ نعم.. الحب طفل صغير يحتـاج دائمـا لمن يرعـاه ويسـانده.. افترض مثلا.. أنا أقول على سبيل الافتراض أننى وناريمان هانم قررنا أن نرتبط وأن نعيش سـعداء مـا الـذى سيقف فـى طريـق سـعادتنا.. سـننطلق نجوب أنحاء الدنيا.. سنتفاهم فى كـل شـىء.. إذا أردنـا الاقامـة فـى مصـر سنقيم.. إذا اردنا ان نسبح فى مـاء البحـر ليـلا وان نمتطـى الجيـاد صباحـا سنفعل.. نذهب إلى آخر الدنيا بالطائرة ونعود بالبـاخرة.. نـأكل مـا نشـتهيه ونلبس مـا نريـده.. نحـدد علاقاتنـا ونختـار مـن يصادقنـا.. لا نخشـى غـدر الاقدار والايام.. لا نقلق على مستقبل الغد.. أليسـت تلـك حيـاة المحبيـن.. أليست تلك هى السعادة.. أليست..

ومرة ثانية يقاطعه عـادل شـرف وكأنـه أدرك حقيقـة مـا يـدور فـى رأس صديقه:

ـ كفى.. كفى.. إنك تكاد تشترى الدنيا ومـا عليهـا.. أحمـد اللـه أنـه مجرد افتراض.

وكالصاعقة التى تخطف الأبصار.. همست ناريمان هانم بهدوء كبير:

ـ ولم لا.

التفت اليها عادل متسائلا فى دهشة:

ـ ماذا؟

اجابت باتزان مثير:

ـ اقول.. لم لا.

ثم التفت نحو سيف واردفت:

ـ ما رأيك يا سيف بك.

ـ فى الحقيقة كنت سأبادرك بهذا.

ـ إذن ليملى كل منا شروطه على الآخر.

ـ لتكن المبادرة منك.. ما هى شروطك.

وبلا تردد بدأت ناريمان هانم تحدد شروطها وكأنها تتوقع ذلك الموقف الغريب، وحددت النقاط فى ايجاز دقيق.. افضحت عن رغبتها بأن يكون الزواج عرفيا وبأن يحق للطرفين أن ينهياه فى أى وقت.. وأن يتحمل أى الطرفين شرط الجزاء فى حالة ما إذا بادر منفردا بانهاء ذلك العقد. وليكن بمبلغ خمسين الف جنيه مقابل شراء سعادة من يريد التخلص من الآخر.. والا يتدخل احدهما فى اعمال الثانى.. وأن تسير كل امورهما بالاتفاق والتفاهم ثم قالت:

ـ وانت ما شروطك.

أجاب فى براءة:

ـ اوافقك على كل شىء.. ولكن على شرط أن يظل هذا الامر فى

طى الكتمان نظرا لبعض الظروف الخاصة بى.. على الاقل حتى ننتهى من مشروعنا.. وقالت مبتهجة وبلا مبالاة:

– هذا لا يعنينى كثيرا.. طالما أنك معى.

وهنا صاح سيف صيحة صبيانية وهو يرفع كأسه قائلا:

– لنشرب فى نخب سعادتنا.

ثم دفع بكأسه يقرب به كأس عادل شرف وكأنه يفقأ عينه بأصبعه ثم قال:

– ها انت تعمل حتى فى سهراتك الخاصة.. لكم أحسدك على ذكائك.

وبصعوبة بالغة حاول أن يستعيد عادل نفسه من حالة الذهول.. واجاب:

– المهم الا تكون القضية خاسرة.

– رفع سيف عينيه نحوه.. وبهدوء يشوبه الخبث قال:

– هذا يتوقف على مقدرتك كمحام.. اليس كذلك.

– ثم التفت تجاه ناريمان هانم ونهض وهو يقبل يدها قائلا:

– سأنتظرك غدا فى مكتب عادل بك لنوقع العقدين معا.. عقد الزواج وعقد المشاركة.

وبعد بضع خطوات توقف ودار برأسه تجاه عادل شرف وقال بلهجة آمره:

– ألا تتبعنى.

(٣)

سارت الامور بالنسبة لسيف العشرى كما يريد.. استطاع أن يحدد خطواته بدقة متناهية وبثبات لا يهتز.. لم يجد صعوبة فى إقناع والدته لكى ترجىء فكرة زواجه من سوسن إلى حين أن يستكمل مشروعه.. كما استطاع أن يوحى لعادل شرف بنواياه الحسنة تجاهه حتى أنه جعل منه الوسيط بينه وبين أمه وسوسن لينقل اليه أخبارها واليهما أخباره التى يحددها له.. مستغلا مشاعر عادل الدفنية تجاه سوسن فكانت تلك مقايضة عادلة أتمها معه بلا بيع أو شراء.. بل بلا اتفاق معلن. وأدرك عادل شرف ما يدور فى فكر صديقه الذى مهد له مبررات زياراته المتكررة لسوسن مقابل ان يتكتم نبأ ذلك الزواج العرفى.

كان فى سباق عنيد مع الزمن.. يعمل ليلا ونهاراً أخضع كل تفكيره ومشاعره لدائرة الأرقام. كان يحلم بالأرقام ويتحدث بالارقام ويتعايش معها وبها.. وفى شهور قليلة استطاع أن يحقق حلمه العظيم.. أصبح يملك المشروع الكبيرالذى خطط له سنوات طويلة.. وبدت ناريمان اكثر منه تحمسا فدار فى فلكها.. ودارا هما الاثنان فى فلك الحسابات والارقام. كانت حياتهما غريبة ومثيرة.. كل شىء من حولهما يخضع لسلسلة من التدابير والتخطيط. كان طريقهما واحدا.. لا علاقات بلا مصالح.. ولا احاديث بلا نتائج.. ولا آمال بلا أرقام. حتى رحلاتهما الترفيهية لا تتم قبل أن يخضعاها لكل الحسابات والتوقعات، وكأنهما يعيشان فى بوتقة الكترونية كل ما فى داخلها يخضع لسيطرة الكومبيوتر.. لا مجال للتمنى أو الرغبات فى حياتهما الخاصة. الطعام يحدد بالاتفاق وبالمرحلة، الأصناف والأنواع

والوقت كل شيء يتم مسبقا ولا يمكن تعدى نوع على آخر فى غير الموعد الذى حدداه.. حتى الجنس بينهما استحال إلى معنى غريب وتوقيتات أغرب.. فتبدلت همسات النشوة إلى دغدغة الحواس بأرقام الربح والغنيمة. وتلاحمت القبلات على التخطيط للصفقات المقبلة. حياة جافة، خشنة.. بالرغم من توترها المستمر ولكنها اشبه ما تكون بالتروس الصدئة التى تأكل نفسها مع كل دورة.. وبالرغم من تلاصقهما المستمر الا أن كل منهما كان يدور فى اتجاه مضاد.

كانت ناريمان من النساء اللواتى يبحثن عن المزيد فى كل شيء ولكن بحذر شديد وذكاء حاد.. فهى تعرف اين تنتهى بخطواتها قبل ان تبدأها.. استطاعت أن تحيط نفسها بمظاهر الثراء والبذخ إلى حد الاستخفاف بالرغم من تقتيرها وحرصها الكبير على كل ما تملك يداها.. لقد دربت نفسها جيدا على أمور كثيرة ومن أهمها انها تعرف كيف تأخذ دون عطاء وكيف تصطاد وهى فى صورة الفريسة المغلوبة على أمرها.. كانت كالرمال الناعمة التى تدوسها الأقدام فى زهو دون ان تشعر بأنها تغوص فيها حتى تبتلعها بدون رحمة أو رجعة.. ولهذا لم يكن عسيراً عليها أن تكتشف حقيقة سيف العشرى من أول نظرة.. أول لقاء.. وجدته ضالتها المنشودة وصيدا سهلا لا يحتاج إلى الكثير من العناء أو التخطيط!.. ادركته نوعا من الرجال ممن يدفعون حياتهم تحت تأثير ثقتهم بأنفسهم.. ممن يخدعهم ذكاؤهم إلى حد الغباء.. فألقت اليه بالطعم الذى تلقفه طواعية وكأنه هو الذى اقتنصه.

أما هو فكان يراها فريسته التى ألقت بنفسها تحت قدميه متأثرة

برجولته الفذة وذكائه العظيم.. رآها امرأة لا تختلف كثيرا عن زوجته التى استاجرها فى غربته حتى يتمكن من تحقيق اهدافه.. ومثل سوسن الساذجة التى استولى على أموالها على أمل كاذب.. ومثل أمه التى لا تحمل فى قلبها الا الطيبة لدرجة السلبية.. رآها فى صورة أى شىء.. الا فى صورتها الحقيقية.

إلى أن جاءت تلك الليلة التى بدأت بعض من جوانب شخصيتها تكشف عن خباياها دون قصد عندما لاحظها شاردة فى نظرة تأمل نحوه وكأنها تقرأ أفكاره الصامتة فبادرها قائلا:

ـ أراك وكأنك تريدين أن تقولى شيئا.

ـ وأنت.

حاول أن يبدو طبيعيا وهو يجيب.

ـ أنا لدى الكثير.

تقدمت بخطوة نحوه كأنها تتأهب للانقضاض عليه:

ـ ألا تشعر بالملل.

أتشعرين أنت.

ضحكت بميوعة وهى تقترب أكثر.. ثم قالت.

ـ أنا معارفى كثيرة كما تعلم.. وقد أجدد نشاطى بصفقة جديدة.. و ..

سارع قائلا:

ـ أنا معك.. أليس كذلك.

.. وضعت كفها فوق رأسه وهو يجلس ساكنا.. ثم همست:

– يا لك من طموح.. أتعرف يا سيف.. أنت تبيع أى شىء فى الدنيا مقابل تحقيق هدف ما.

– إلا نفسى.

– وممكن أن تدمر كل ما يعترض طريقك إلى ذلك.

– إلا نفسى.

فركت خصلات شعره بين أصابعها وهى تستدير قائلة:

– وقد تضحى بأغلى ما عندك أيضا فى سبيل ذلك.

نهض من مكانه متحفزا.. ثم قال من خلال نظرة طويلة شعرت بها تخترق ظهرها.

– إلا بك.

التفتت إليه قائلة بهدوء:

– كنت أعلم أنك ذكى جدا.. ولكنى اكتشفت أنك خارق الذكاء.

– الا تحدثينى عن صفقتك الجديدة.

ومرة أخرى تطلق ضحكتها وهى تسير فى غير اتجاهه.

– لم نتفق على ذلك يا عزيزى.

لحق بها متلهفا.

– ولكنى زوجك.

– قل شريكى.

تصدى لها وهو يردد:

ـ اجل.. اجل شريكك.. و ..

قاطعته بحزم كشف الكثير عن جبروتها:

ـ وهل عندك ما نتفاوض عليه.

تجمدت أسارير وجهه وقد غشت عينيه نظرة بليدة فشل فى مقاومتها وهو يتساءل:

ـ لا أفهم.. أقصد

هذه المرة لم تتصنع الضحك كعادتها.. ولكنها انطلقت فى ضحكة من القلب وهى تقول:

ـ سيف العشرى لا يفهم.. انها كارثة.. يا عزيزى انت قمة فى الذكاء.. و ..

اقتربت من شفتيه تداعبهما بطرف اصبعها.. ثم أردفت:

ـ ومتعدد المواهب أيضا.. فكيف لا تفهم.

ـ ألا تصدقينى.

ـ أنا أصدقك فى كل شىء.. ولكنى تدربت على يديك.. والحرص يفيد كما نقول دائما.

حاول أن يتكلم.. ولكنها بادرته مسرعة:

ـ ألن تذهب لزيارة والدتك.. و ..

ضغطت على جبينها كأنها تعتصره ثم استطردت:

ـ دائما ما أنسى اسم قريبتك.. بالمناسبة ما اسمها.

ـ سوسن.

ـ آه.. سوسن.. ألن تذهب لزيارتهما.

أجاب بنبرة مستسلمة:

ـ ناريمان.. قولى ما عندك بلا مراوغة.

ـ ماذا بك يا سيف.. ألم نتفق على كل شىء.. لا اتدخل فى عملك.. وأنت لا تتدخل فى أعمالى.

ـ أنا لا أتدخل.. ولكنى أطلب الوضوح فربما أستطيع أن..

قاطعته بلطف:

ـ فى هذه الحالة.. من الممكن أن أخبرك.. ولكن بعد عودتك.

مضت لحظات صمت احتوتهما فى نظرة طويلة تضم معانى كثيرة.. ولكنها غير مفهومة. لكليهما ثم قال:

ـ سأعود بعد يومين.

كان الطريق مظلما، والامطار تنهمر فى سيول متلاحقة.. والبرق يصرخ فى الافق بقوة.. بينما انكمش سيف وراء عجلة قيادة سيارته وقد احكم اغلاق نوافذها من حوله كأنه يخشى أن تمتد إليه يد خفية فتلقى به على الطريق الموحل. كان يشعر بالاضطراب الشديد وكأنه الخوف نفسه وهو يلاحق بنظراته كاسحات المطر من وراء الزجاج فى تتابع ديناميكى وكأنه اكتشف فجأة أن الخوف بداخله وليس مما يحيط به الآن فأغمض

جفنية لحظة، وعاد مرة أخرى ليتابع الطريق بعينين شاردتين وهو يهمس فى نفسه:

.. تراها تعلم بقصة اقتراضى للمال من سوسن.. هل اخبرها عادل شرف بشيء.. لا استبعد ذلك.. فهو وغد ومتسلق.. يجب أن أجد طريقة لأكون شريكا لها فى كل شيء.. هى زوجتى من حقى عليها ذلك.. انها فرصة العمر.. لن يفسد على الوهم كل ما خططت.

الساعة الواحدة ودقيقتان بعد منتصف الليل.

اوقف سيف محرك سيارته ونزل منها مسرعا إلى داخل بوابة منزل والدته..

وانتظر برهة التقط من خلالها انفاسه أو كأنه يرتب فى ذهنه ما يجب أن يفعله وسيفعله فى خلال تلك الزيارة المفاجئة.

طرق الباب بلطف.. كانت مفاجأة له عندما استجابت سوسن لفتحه مسرعة أدرك أنهما كانتا متيقظتين فى ذلك الوقت المتأخر.. اندفع نحو أمه يعانقها إلى صدره على غير عادة.. عبر بكلمات كثيرة عن اشواقه ولهفته لرؤياهما.. ثم اتجه إلى سوسن مهللا بشوشا.. و .. متوددا:

ـ كيف حالك يا سوسن.. لقد كنت أفكر فيك كثيرا.. أود أن أطمئنك على سير المشروع فكل شيء عظيم.. و ..

قالت الأم:

ـ هذه أنباء سارة.. ولكن ألا تدخل لتستريح حتى الصباح.. تجاهل كلماتها وتوجه بنظرة إلى سوسن قائلا:

ـ ارجوك لا تذهبى غدا إلى عملك.. فأنا أريدك فى حديث هام.. و ..

قاطعته الأم باصرار:

ـ وأنا ايضا أريدك فى حديث أهم.. والآن إلى حجرتك يا ولدى

كان صباحا مشرقا.. شعر سيف بنشاط غريب يدب فى كيانه بعد ليلة نادرة لم يستطع خلالها أن يقاوم عناء الارهاق فاستسلم لنوم عميق بعيدا عن نوبات القلق المستمرة، وبعيدا عن الأرقام والمخططات.. أحس بالشباب يتدفق إلى عروقه وبالتفاؤل يدغدغ حواسه.. وما أن انتهى من افكاره حتى بادرته الأم قائلة:

ـ كيف تسير الأمور عندك يا سيف.

ـ تقصدين العمل.. والمشروع.

ـ وهل عندك ما يشغلك غيره..

سلط نظرته على وجهها برهة.. كما لو كان يبحث عن المعنى الآخر الذى وراء كلماتها.. ثم أجاب:

ـ بالطبع لا.. ولكنك تعلمين يا أمى مسئولية العمل ومشاغل التجارة.. وذلك من الاسباب التى تجعلنى ابتعد قليلا عنك.. أقصد عنكما.

أومأت برأسها دون أن تتكلم.. بينما سارعت سوسن قائلة:

ها أنا يا عزيزى لم أذهب لعملى كما طلبت.. فما هو الأمر الهام الذى تريدنى فيه.. وكأنك ستقوله وترحل فورا.

حاول أن يبتسم وهو يقول:



ـ لا.. بل سأبقى معكما يومين.. ولكن تعودت أن يكون الحديث معك فى الهواء الطلق وأنت مرشدة سياحية وأقرب الناس لمعرفة قيمة الانطلاق.. خاصة إذا كان الحديث عن المستقبل.

ابتهجت اسارير الأم وتدخلت هامسة اليها.

ـ يبدو أن المستقبل بدأت تظهر ملامحه.. أقصد بصماته.

لم تهنأ سوسن بلحظة السعادة التى اجتاحت كيانها عندما لم تلحظ أستجابة سيف لتلميحات أمه.. ومع ذلك استطاعت بلباقة أن تحول الحديث قائلة:

ـ بما أن الحديث عن العمل.. فخالتى هى المسئولة كما تعلم.. أما أنا فسأتفرغ لك غدا إذا شئت.. سنذهب إلى رحلة رائعة.. سأصطحبك إلى مكان هادئ جميل حتى تتخلص من هموم العمل.. أم أنك..

قاطعتها الأم قائلة:

ـ ألن تعطينى فرصة للحديث معه.. أم ستخبرينه أنت بنفسك.

أجابت بارتباك مفضوح بحمرة الخجل على وجهها:

ـ أنا.. أنا تذكرت شيئا هاما يجب أن انجزه الآن.. و .. نهضت مسرعة ثم أردفت:

ـ سأعود بعد ساعة أو أكثر قليلا.. أرجو أن تغفر لى يا سيف فأنا تذكرت الموعد الآن فقط.. سأجدك أليس كذلك.

نظر اليها بنظرة معاتبة كأنه يلومها لأنها تركته وحده.. ثم أومأ

برأسه دون أن يتفوه بكلمة واحدة.. وما إن انصرفت حتى التفت إلى أمه قائلا:

ـ كنت أريد مبلغا آخر حتى أستكمل بعض مشروعاتى الجديدة.. وعلى كل حال سأمنحها هذه المرة كل الضمانات التى تطلبها.. إنه مشروع كبير وسيدر ربحا وفيرا.. إنها فرصة العمر يا أمى وأعتقد أنها لن تصادفنى مرة ثانية. من الممكن أن أعطيها الحق فى مشاركتى بالنسبة لنصيبى.. وأنا على يقين أن..

قالت الأم بهدوء مثير:

ـ أهذا كل ما تفكر فيه الآن.

ـ إنه مستقبلى يا أمى.

ـ وماذا عن مستقبلها.

ارتجفت أهدابه كأنه فوجئ بعاصفة ترابية كادت تفقده بصره.. أجاب بتراخ:

ـ تقصدين سوسن.. لقد قلت لك يا أمى سأمنحها الضمانات الكافية.. و .. أخرسته بسؤالها المباغت:

ـ هل التقيت بعادل شرف هذه الفترة.

سرعان ما استنفرت أساريره ملامح الغضب وهو يقول:

ـ وما دخل عادل شرف فى الموضوع.. أنا أحدثك عن نفسى وأنت تقحمينه بلا مبرر قبل أن أحصل منك على إجابة واضحة..

ـ كفى مراوغة يا سيف ولا تعتقد أننى أجهل ما يدور فى ذهنك.

ـ ماذا تقصدين.

ـ لقد تقدم عادل شرف بالأمس لخطبة سوسن.

انتفض فى فزع وهو يردد صارخا:

ـ مستحيل.. لن يحدث هذا أبدا.

لحقت به باسمه وقالت:

ـ أنا أيضا لم أستجب لطلبه بشكل نهائى قبل أن أعرف رأيك وموقفك

كان زمام أعصابه قد أفلت من إرادته وراح يردد:

ـ هذا الوغد.. إنه يحلم.. لن يحدث أبدا ما يفكر فيه.. لن أقبل أبدا أن تكون سوسن لمثل هذا الانسان المتسلق اللزج.

بدت أكثر هدوءًا منه وهى تتساءل:

ـ هو بالذات.

أجاب بلا تتردد:

ـ نعم.. هو بالذات.

ـ وأنت.

ـ أنا.

قالها بنبرة ضعيفة.. بينما لاحقته أمه قائلة:

ـ أجل.. أنت.. ما موقفك.. هل تريدها أم لا.. وإذا كنت لا تريدها فلماذا ترفض "عادل" أو غيره.. دعها إذن لشأنها.. و ..

التفتت نحوه بنظرة قاسية واردفت:

ـ ثم ما معنى أن تقترض منها كل هذه المبالغ وتعود لتطلب المزيد وعلى أى دافع كنت تستند فى طلباتك.

حاول أن يمارس قدرته على المراوغة مرة أخرى متظاهرا بالغضب:

ـ أنا لا أقبل تلك المقايضة.. أنا لست أنانيا وانتهازيا.. كل ما فى الأمر أننى.

ولكنها تقاطعه بعنف:

ـ لا أريد أن أسمع المزيد من المبررات.. هى كلمة واحدة.. تريدها أم لا

مضت لحظة صمت عميقة.. ابتلع من خلالها ثورته وتوتره ثم تساءل فى دهاء:

ـ وهى.. ما موقفها منى

اقتربت منه وراحت تربت على كتفه بلطف وقالت بفرحة مستترة:

ـ كنت اظنك أكثر ذكاء.. بالتأكيد هى تريدك.. ألا تراها كيف يتبدل حالها عند رؤيتك.. وكيف تفعل المستحيل من أجل ارضائك.. ألا تنتبه لنظرات الحب إليك.. لقد كنت أراقب مشاعرها نحوك بسعادة بالغة.. ولم يقلقنى شىء غير مشاعرك أنت نحوها.

جلست أمامه فى استكانة هادئة ثم استطردت:

ـ سيف يا ابنى.. لم يعد فى العمر بقية.. ولن أهدأ الا لو اطمأننت عليك وعليها فأنتما بالنسبة لى كل شىء فى حياتى.. فلا تحرمانى من أن أعيش بقية عمرى هادئة مطمئنة.



ادار ظهره فى محاولة لاخفاء ما قد يفشل أن يخفيه أمام نظراتها الثابتة.. وقال:

ـ سوسن فتاة رقيقة.. أى رجل فى الدنيا يتمنى أن تكون لـه زوجة مثلها.. هى مثقفة وجميلة ولها قلب عظيم.. كل ما فى الأمر أننى وددت لنفسى فرصة أستطيع من خلالها أن أتفرغ لأعمالى حتى تستقر أمورى إلى الأبد.. ولكن.. إذا كان الأمر كذلك فأنا يا أمى أقولها بصراحة أننى عندما اقرر الزواج فلن اجد خيرا من سوسن.

ـ ها أنت عدت لتراوغ من جديد يا سيف.

التفت نحوها بحماس:

ـ أنا لا أراوغ.. أنها الحقيقة.. وأنا مستعد أن..

لاحقته بتربص قائلة:

ـ ستصبح كل أموالها بعد زواجها منك هى أموالك.

ـ قلت لك يا أمى أنا لا أحب المقايضة فى مثل تلك الأمور.. أنا أريد سوسن لشخصها وليس لاموالها.. ولكن من حقى تلك الفرصة التى أطلبها.

عادت تنهض من جديد تسعى وراءه.. أرادت أن تؤكد على كلامه مرة أخرى.. وقالت مبتسمة:

ـ إذن.. سأعتبر كلامك هذا أنك تقدمت اليها رسميا.. و .. اسرع يقول مؤكدا:

ـ طبعا يا أمى.. وفى الزيارة القادمة سأتفق معها على كل شىء.. وسأكون قد استعددت لتلك المناسبة السعيدة.. ولكن ارجوك أن تقطعى الطريق على ذلك المدعو عادل شرف.

ضحكت مِلْءَ رئتيها قائلة:

ـ كنت لا أعرف أنك غيور إلى هذا الحد.. لو كنت أعلم هـذا عنـك من قبل لنجحت فى إثارة غيرتك منذ فترة بعيدة ولو عن طريق الايحاء بأن هناك من يريد أن يتقدم لها.

وما كاد يسترسل معها فى الحديـث حتـى أمسـك عـن الكـلام عندمـا عادت سوسن وفى عينيها نظرة شاردة فى قلق وكأنها تخشى ألا تكون تلـك الجلسة قد اثمرت بما لا ترضاه كأن يقبل زواجها من عادل شرف.. ولكن نظرة الأم الحانية وابتسامتها الهادئة دفعا إلى صدرها الشجاعة والاطمئنـان لتتقدم قائلة فى خجل:

ـ هل تأخرت كثيرا.

همهم بكلمات غير مفهومة وهو يتجاوزها بعدة خطوات.. ثم قال:

ـ يبدو أننـى الـذى تـأخرت.. لقد جدت أمـور ستخطرك بهـا أمـى وأحب أن أعرف رأيك بعد عودتى.. ولابد أن أرحل الآن.

حاولت أن تلحق به وهى تردد:

ـ ألم تكن ترغب فى محادثتى.. أم أنك.

قاطعتها الأم وهى ترمق سيف بنظرة راضية:

ـ الحديث معـى أنـا يـا ابنتـى.. أم تريديـن أن تلغـى وجـودى يـا حبيبتى.. دعيه ينصرف فأنا على يقين أنه سيعود سريعا.. وسريعا جدا.

اندفع إلـى الخـارج وكأنـه كـان ينتظـر تلـك الاشـارة.. أغلـق البـاب خلفه.. استند بظهره عليه للحظة استرد فيها نفسا عميقا إلـى صـدره وكأنـه يسترد من خلاله اغلى ما يملك.. عقله.

(٤)

بدا كالفهد الجريح وهو يتحرك بتوتر داخل حجرته.. لم يعد قادرا على ترتيب أفكاره منذ عودته من اللقاء الأخير.. كان احساسه بالانقباض يجعله مترقبا لأحداث غاية فى السوء وكأنه وجد نفسه فجأة فريسة لحالات من التمرد التى دأبت تضيق عليه الخناق من كل جانب.. تمرد من مشاعره وأفكاره.. تمرد من ذكائه وأهله.. تمرد من نفسه على نفسه.. شبح الهزيمة كان يطوف بخياله فيملأ كيانه رعبا.

جلس بهدوء فوق مقعده المفضل وكأنه يتلمس لنفسه مكانا وسط الضباب الذى يحيط به ولكنه ما لبث أن نهض فزعا رافضا احساسه بالتخاذل أو التقوقع.. وراح يعيد الكرة من جديد وهو يدب بخطواته على الأرض بقوة كما لو كان يثبت لنفسه بأنه لا يزال سيف العشرى الذى لا تهزمه المواقف أو الأحداث.. وسرعان ما استعاد إلى صدره كل حشود المقاومة ضد كل التوقعات.. كان يعلم أنه سيواجه عينين وكأنهما كهفان يحتويان كل من يجرؤ على اقتحامهما فى ظلام قاتم تضيع فيه كل الخطوات وأمام همسات كالفحيح سوف تسعى لتخديره ثم تبثه سما لا محالة قاتلة.. كان يعلم أنه سيواجه ناريمان.

ولهذا كان حريصا فى المساء عند عودتها أن يبدو طبيعيا وهى تحاصره بنظرات متتابعة كالومضات ثم وهى تدس بجسدها بجواره فى الفراش:

ـ أراك مكتئبا يا سيف.. هل هناك ما تخفيه عنى.. أنا زوجتك

والمفروض أن أساندك فى أية ضائقة.. بالمناسبة متى عدت.

ـ منذ ساعات قليلة.. ولكنى مندهش.. فتلك هى المرة الأولى التى تسألين عن أمورى وأحوالى منذ أن تزوجنا.. حتى أننى كدت أنسى أننا زوجان.

زحفت بظهرها قليلا إلى أعلى.. ثم التفتت نحـوه فـى نظـرة طويلـة صامتة قبل أن تقول:

ـ ألم أقل لك.. أنت اليوم على غير عادتك.. ماذا بك يـا سيف.. لا تخفى شيئا عنى.

ابتسم باستخفاف وهو يردد:

ـ ولماذا أنت تخفين كل شىء عنى.. ألست زوجك.. فأنا لا أعـرف عنك أى شىء غير أننا شركاء فى العمل فقط.. ولكـن مـا يخـص علاقاتنـا كزوجين فكل منا فى طريق.. وأنت التى تحددين ذلك.

قالت بلا مبالاة:

ـ وماذا تريد أن تعرف.

قفز كالنمر فى مواجهتها قائلا فى إلحاح:

ـ أريد أن أعرف كل شىء عن المشروع الجديد.. كم رأس مالـه.. كم سيربح.. ومع من ستشتركين.. ولماذا لا تضمينى إلى هذه الشركة.. أنـا أشعر بالحزن لموقفك هذا منى.. أنت..

قاطعته بهدوء:

ـ بالعكس يا حبيبى.. فأنت أول من عرف بموضوع المشروع الجديد.. فأنا لم أخف عنك شيئا.. ألم نتفق قبل سفرك على أنك سوف تستعد ثم تأتى لمناقشة التفاصيل.. و ..

داعبت شعره بأصابعها وأردفت:

ـ بالمناسبة.. هل استعددت؟ ماذا فعلت فى رحلتك إلى القاهرة. نهض فى تخاذل.. وتحرك عدة خطوات موليا لها ظهره.. ثم قال بنبرة ضعيفة:

ـ أنا مرهق جدا.. أشعر باليأس وهو يتسرب إلى عروقى دون أن أقوى على مواجهته.. أشعر بالحزن يعتصر وجدانى.. أنا..

لاحقته بسذاجة:

ـ ولم كل هذا..؟

ـ أنت السبب..

ـ أنا..

اتجه نحوها مرة أخرى بعد أن ظن أنه قد أحكم قبضته على أول الخيط نحو السيطرة على مشاعرها ثم قال:

ـ نعم أنت.. فأنا أشعر بأننى لا زلت فى غربتى.. وحيدا.. لا أحد يهتم بى لا أحد يحبنى.. لا أحد يثق فىّ.

ازاحت عن جسدها الغطاء وهى تنهض ببطء.

ـ أنا أثق فيك يا عزيزى.. ولكنك تبدو عصبيا اليوم.. وعلى كل حال سأخبرك بحقيقة مشروعى وعليك أن تقرر..

ـ نعم.. نعم أخبرينى ثم أقرر بعد ذلك..

بدأت أسارير الحزم ترتسم على وجهها وسرعان ما استعادت وقارها وهى تجلس قائلة:

ـ نحن فى موسم الدولارات.. عطلات العاملين فى الخارج.. وأنا أنوى شراء صفقة كبيرة من الدولارات ثم اقوم ببيعها بعد أشهر قليلة لرجال الأعمال.. فى هذه الحالة ستتضاعف أموالى إلى الضعفين على الأقل.

قال ببلاهة:

ـ إلى هذا الحد أنت تفكرين.. هل تسمحين أن أصفك بأنك داهية..
و.. ضحكت بميوعة وهى تعود أصف إلى فراشها ثم قالت:

ـ لقد تعلمت منك الكثير.

لحق بها فى شغف مرددا:

ـ ولكن.. كم قيمة الصفقة؟

ـ يا حبيبى.. من يبدأ كبيراً سيظل إلى الأبد كبيراً.

ـ وهل معك المبلغ؟

دفنت نفسها تحت الغطاء من جديد وهى تقول فى يأس:

ـ لو كان معى.. لما بحثت عن أى شريك.

التصق بها فى تودد:

ـ وهل وجدت الشريك؟

أجابت بحزم:

لا..

ـ أنا..

التفتت اليه باهتمام..

ـ كيف؟

ـ نقترض باسم مشروعنا..

ـ ولماذا لا نبيعه.. فالصفقة ستعوضنا خيرا منه بكثير..

صاح فى فزع حقيقى:

ـ ماذا.. كيف تفكرين بهذه الطريقة.. أبيع المشروع الذى ظللت سنوات طويلة أحلم بأن اقيمه.. كيف أبيعه وأنا لا أضمن أن..

قاطعته بحدة وهى تقول:

ـ أرجوك لا تلق بى فى دواماتك فأنا لا دخل لى بمشاكلك الخاصة والصفقة سأتمها بأى وسيلة سواء كنت معى أم لم تكن.. أنت تعرف عنى أننى لا أتراجع عن أى خطوة بدأتها مهما كلفنى الأمر.. إنها صفقة العمر

ولن أدعها تفلت منى.. سأبيع نصيبى فى المشروع لأى انسان.

ـ أنت واثقة تماما من نجاح الصفقة.. ولكن اهكذا بسهولة تتخلين عن أحلامك فى المشروع.. ثم من أدراك أنك ستجدين من يشترى نصيبك بهذه السرعة.

رمقته بطرف عينيها ثم اجابت بكبرياء:

ـ أنت تعلم أن معارفى كثيرون.. وأغلبهم يتسابقون لخدمتى.

ـ أنت امرأة ذكية.. ولديك الكثيرون كما تقولين يتسابقون من أجلك.. فهل سأجد نفس المصير بالنسبة لنصيبى.. هل سأجد من يشترى حصتى بهذه السرعة.

وبصوت منخفض جدا همست:

ـ أنا..

أراد أن يتأكد أنه لم يخطئ السمع فقال بحذر:

ـ ماذا قلت؟

ـ قلت.. أنا..

بدا وكأن الأمر لا يعنيه كثيرا.. أحاط خصرها بذراعيه يداعبها على غير العادة.. ثم ردد:

ـ أتمزحين يا ناريمان..

تخلصت منه بهدوء وهى تؤكد:

ـ أنا لا أمزح.. يمكننى شراء نصيبك.. وبهذه الطريقة نقتسم أرباح الصفقة بلا شريك ثالث..

ـ كيف؟

ـ سأقترض باسم المصنع.. وبهذا سأتحمل وحدى كل الاحتمالات.

استدار بعصبية:

ـ أنت تهذى.

قالت بهدوء.

ـ أريد أن أنام.. لدى مشاغل كثيرة غدا.

قال وكأنه يحدث نفسه وهو يطفئ الأضواء:

ـ وأنا أيضا..

سحب صندوق السيجار الخاص به.. بدأ ينفث دخانه بتوتر بعد أن أشعله.. وبين اللحظة والأخرى يختلس نظره نحوها وهى راقدة فى سلام وهدوء غريبين.

الليل يزحف فى تثاقل بينما هو راقد فى مكانه لا يسعى للنوم ولا النوم يسعى إليه.. بدا متصلب الأعصاب شديد الترقب لكل خاطرة تمرق إلى ذهنه.. أمور كثيرة تشغله وقد ازداد ارتباكه من تلاحقها.. لا يعرف



كيف يكون موقفه من عادل شرف وبماذا يعلل رفضه لزواجه من سوسن.. ولا يعرف كيف يكون تصرفه مع ناريمان التى بدت أكثر ذكاء مما كان يأمل.. الصفقة مغرية ومن خلالها يمكنه أن يتخلص من حصار مشاكله.. قد يفوز بالمال وباستقلاله.. وقد يفشل.

دار بعينه فى ظلام الغرفة كأنه يبحث لنفسه عن مخرج من قلقه عندما راوده احتمال الفشل.. مرة أخرى أبدى التفاتة نحو ناريمان وهى تغط فى نومها وراح يتساءل من جديد:

.. لماذا لا تكون حسنة النية.. ما الذى يجعلنى أتوقع منها شرا.. هى زوجتى فى كل الحالات.. يمكننا أن نعيد حساباتنا معا من جديد.. كما يمكننى أن أكسب رضاء أمى وأن أعيد لسوسن أموالها بعد ذلك.. يجب ألا أخضع لأحاسيس الخوف.. الأمور تسير حتى الآن فى صالحى.. كل شىء نفذ كما خططت. كيف أفقد صفقة مثل هذه لمجرد أوهام ليس لها اساس.. هى لا تثق فى ذلك من حقها. قد تكون تعلم كل شىء عن علاقتى بسوسن وتخفيه عنى.. قد يكون عادل شرف هو الذى لعب ذلك الدور معها.. لماذا لا أفوت عليه تلك الفرصة.. هى أفضل من أى شريك آخر يتدخل بيننا.. هى زوجتى ولن تجرؤ على الاستهانة برجل مثلى.. ستكون الأمور كما أريد.. لا داعى لذلك القلق.. يجب الا أتردد.. يجب أن.. تلمس وجنتيها برفق وهو يردد بصوت حنون:

ـ ناريمان.. ناريمان.

وكأنها لم تغفل قط.. كما لو كانت تشاركه حواره دون أن يدرى.. حيث أجابته فى الحال قائلة:

ـ ماذا فى الأمر يا سيف.. هل.. ثم نظرت إلى المنبه الذى بجوارها وأردفت:

ـ الساعة تجاوزت الثالثة صباحاً.

أسرع بحكم العادة يؤكد:

ـ أجل.. الساعة الثالثة وخمس دقائق.. ولكنى كنت أريد أن أستفسر عن شىء منك.

لم تبد اهتماما فاستطرد:

ـ هل أنت متأكدة من نجاح الصفقة.

ابتسمت بارتياح.. ثم قالت:

الآن فقط ازددت تأكيدا من أن الصفقة ناجحة تماما.. فمثلك لا يستهلك وقته فى التفكير الا فى الأمور المضمونة.. والناجحة.. أليس كذلك.

ـ لقد قررت مشاركتك فى العملية.. ..

قالت وهى تستدير وكأنها تستعد للنوم.

ـ إذن نلتقى غدا عند عادل شرف لكى

قاطعها وهو منفعل:

ـ لا.. عادل شرف لا.. نذهب إلى محام آخر وأنا مستعد لكل شىء.

أجابت ببرود:

ـ لن أسألك عن السبب.. المهم أننا اتفقنا.

سارت الأمور هادئة بعد ذلك.. كل شىء انتهى إلى حيث يرغبان بلا توتر أو محاورات، أراد أن يكسب جولة أخرى وهو فى طريقه فطلب أن تكتب له توكيلا عاما لادارة المعامل.. وافقت دون تلكؤ.. حاول أن يبدو طبيعيا أمامها.. نجح فى إخفاء توتره بعد أن تم كل شىء.. زاد من جرعات تلطفه نحوها.. أعادها إلى أوائل بدء علاقتهما معا.. كان سريع الاستجابة قليل العناد معها.. لم يجد صعوبة فى تلمس ذلك التغير الغريب الذى طرأ على تصرفاتها معه.. بدت تكشف عن ثنايا الحنان فى أعماقها تجاهه. رآها تعلن عن نفسها امرأة كاملة الانوثة بعدما كاد يفقد ذلك الإحساس منها.. تقلصت الأرقام لتحل محلها عبارات الأمل والحب.. وكأنه قد انتقل إلى عالم آخر أو أنه يتعايش مع حلم طويل فرضته هى عليه دون مقاومة منه.. فاجأته بعرضها بأن يشتريا قسطا من السعادة من خلال رحلة لبضعة أيام.. وافقها بحكم المشاركة وانطلقا ينهلان من الزمن القصير أجمل اللحظات.. فى صباحهما يستنشقان عبير الزهور وسط جزيرة النباتات بأسوان وقبل أن تتوسط الشمس قلب السماء يكونان قد انتقلا بالطائرة إلى حيث معابد الأقصر ثم يعودان مع الغروب فى رحلة

نيلية رائعة.. التقطا الكثير من الصور فكانا فى أرق صورة للحب. وأعظم صورة للسعادة. وقد منحهما ذلك الإحساس بالرضى حتى ولو كان من خلال الصور فقط.

وعادا مرة أخرى.. وبعودتهما استقرت الأحوال على ما كانت فى الماضى وكان المبلغ المحدد لشراء قسط السعادة قد نفذ وانتهى كل شىء.. وغابت الصور حتى عن الذكرى.

سألها بحرص كبير:

ـ ماذا عن أخبار الصفقة.

أجابته باقتضاب.

ـ اطمئن.

كانت الليالى تمضى، وهى مع الوقت تزداد بعدا ولكن ليس جفاء.. لأول مرة يشعر بأنه فى حاجة إلى قربها، يريدها بجانبه دائما. كان يعلم السبب.. يريد أن يطمئن على نتيجة مجازفته.. أصبح يلهث وراء أخبارها بينما هى تنساب من أيامه كما تتسلل قطرات الماء من قبضة اليد.. بدأ القلق يداهمه فى كل لحظة.. فما يكاد يتخلص منه بعد توتر الليل حتى يتلقفه النهار بكثير من الظنون.. أرهقه الانتظار وتقوقعت معنوياته من طول الترقب.

وكعادة الزمان.. جاء بدوره يحاصره بالمزيد من الأحداث كأنه

يؤكد من جديد بأن لا حياة لضعيف.. وكأن لاحاسيس الخوف رائحة تجذب من يخفيها.. وللجراح نداءات لا يسمعها غير مخالب الاقدار فتهرع اليها لتفتك بصاحبها. وكأن الأحلام السعيدة ما هى الا كوابيس خادعة لا تكشف عن حقيقتها الا فى الواقع، مثلها مثل الدموع التى قد تقطر من كثرة الضحك أو البكاء وهى فى النهاية دموع كالتى احتبست بين جفون سيف فى لحظة يأس قاتمة عندما أسرع ليفتح باب الفيللا راغبا فى رؤية ناريمان بعد عدة طرقات عليه.. ليجد نفسه وجها لوجه امام والدته وسوسن.. فى رهبة عنيفة افقدته اتزانه للحظات قاسية. غير أنه انتبه لمبادرة أمه قائلة:

ـ أهكذا يكون استقبالك لى يا سيف.. لقد ظننتك ستطير فرحا لتلك المفاجأة. لقد اشتقت لرؤياك فقررت أن أحضر بنفسى بعد أن طال غيابك ازدرد ريقه وهو يجاهد فى جذب ابتسامة على شفتيه:

ـ أهلا يا أمى.. مرحبا بك يا سوسن تفضلا.

بدا الارتباك واضحا عليه فى إجاباته والتفاتاته.. دار الحديث بينهم وكأنه فى مناورة كلامية يغلفها الغموض فى كل معنى يقال.. إلى أن همست الأم بصوت ضعيف قائلة:

ـ فى الحقيقة يا ولدى.. أننى جئت لأقطع الألسنة الحاقدة التى تتقول من حولك بالشائعات.

لم يجب.. ولم تنتظر منه إجابة وأردفت:

ـ تصور أن صديقك عادل أراد أن يلعب لعبة دنيئة بعد ما أخبرناه بنبأ

خطوبتك لسوسن.. قال إنك..

وضحكت وهى تضرب كفا بكف ثم قالت:

ـ قال إنك تزوجت من امرأة تكبرك سنا وتعيش معها هنا.. بل إنها شريكتك أيضا.. لم أكن أتخيل بأن هناك أناسا بهذه الصورة.. و ..

صمتت برهة رمقته من خلالها بنظرة ثاقبة واستطردت:

ـ ولكن لا تخش على أمك.. لقد أعطيته درسا لن ينساه.

تجاهل حديثها والتفت نحو سوسن قائلا:

ـ كيف حالك يا سوسن.. هل طلبت أجازة من عملك.. أم أنك تدخلت الأم قائلة:

ـ أنا طلبت منها الحضور معى لترى بنفسها كيف استثمرت أموالها.. لكى تسعد معك وتسعدنى أنا أيضا.

لاحقتها سوسن بهدوء:

ـ بل جئت لكى أراك ولأطمئن على أحوالك.. فربما تكون فى حاجة إلى.

قال بعد أن استعاد بعضا من اتزانه:

ـ فى الحقيقة يا سوسن أنا اليوم كنت أستعد للحضور اليكم.. ولكن الآن.. أقصد سأضطر لتأجيل المهمة التى كنت سأنهيها بعد مجيئكما أنا سعيد جداً.

أما بالنسبة للمشروع فكل شىء يسير على ما يرام. وأنا أفضل أن تأتيا معى الآن لترياه على الطبيعة

وقبل أن تجيبه سوسن سارعت الأم قائلة:

ــ لا داعى للعجلة يا ولدى.. غدا صباحا سنقوم بجولة معك.. واليوم نفضل الاستجمام بعد عناء الرحلة.. و ..

ولكنها صمتت عندما ارتفع رنين جرس الباب.. تحرك سيف نحو الباب وفتحه.. وقف مشدوها أمام ناريمان وكل أسارير الاضطراب قد استقرت فوق ملامحه.. تجاوزته بعدما داعبته بكلمات سريعة.. ولكنها تسمرت فى مكانها بمجرد رؤية الأم وسوسن والتفتت اليه بنظرة حادة ثم قالت:

ــ هل عندك ضيوف يا سيف.

وكأنه تذكر بأن عليه أن يفعل شيئا.. أى شىء.. اسرع بخطوات متعثرة واتخذ لنفسه مكانا بينهم ثم قال:

ــ أعرفك بوالدتى والآنسة سوسن.. و ..

وجه حديثه نحو أمه وهو يلملم شتات نظراته العشوائية.. واردف:

ــ ناريمان هانم.

ــ لماذا لم تخبرنى يا سيف بقدومهما.. على الأقل لكى أكون فى شرف استقبالهما.. هكذا أنت دائما تميل للمفاجآت.. أقصد المفاجآت السارة

ضحكت وهى تتقدم نحو سوسن التى كانت تتابعها فى شرود.. وتوقفت أمامها قائلة:

ـ أنت سوسن.. لقد سمعت عنك كثيرا.

التفتت لسيف مستطردة:

ـ لا.. لا يا سيف أنت لست دقيقاً فى وصفك لها.. إنها أجمل مما تخيلت بكثير.

لم يجب.. حاول أن ينظر إلى أمه ولكنه فشل من شدة أضطرابه.. ولكنه تمالك نفسه وهو يقول:

ـ أجل.. يبدو أننى لست دقيقا فى وصفى.. على كل حال أنا.. ولكنها تقاطعه بهدوء كالذى يسبق العاصفة:

ـ الدليل على ذلك انك للآن لم تقدمنى لهما كما يجب.

حاول أن يسكتها بنظرة متوسلة.. ولكنها تجاهلته وهى تقول:

ـ أنا سعيدة برؤيتك "يا تانت".

ـ أجابت الأم وهى فى ذهولها:

ـ سأكون أكثر سعادة لو تقدمين نفسك طالما أن ولدى يؤثر الصمت.

ـ أنا زوجته.. وشريكته أيضا.

تراجعت سوسن بخطوة للخلف وكأنها تحاول أن تتماسك قبل أن

يغشى عليها.. بينما تقدمت الأم نحوه بخطى ثابتة ورفعت نظرتها اليه وهى تهمس بنبرة حزينة:

ـ أحقا ما تقوله هذه السيدة.

لاحقتها ناريمان قائلة بفتور:

ـ اسمى ناريمان.. ناريمان هانم.

صرخت الأم بلا إرادة وهى تردد:

ـ لا تتدخلى من فضلك.. فأنا أحدث ولدى.

أجابتها بتصميم:

ـ ولكن أرجوك يا هانم لا تنسى أنك فى منزلى.. وأنا لم أخطئ فى شىء.. تلك كانت رغبة ولدك ولم أساله عن السبب.. ولكن إذا تجاوز الأمر حدوده فلن أترك الفرصة لأحد لكى يقترب من كرامتى.

صاحت الأم من جديد وهى تركز نظرتها إلى عينيه:

ـ لم أسمع صوتك حتى الآن.. أخبرنى هل ما تقوله هى صدق همهم بارتباك:

ـ كنت سأخبرك يا أمى.. لا داعى للانفعال.. الأمر جاء.. قاطعته بحدة

ـ إذن فهى صادقة فيما تقوله.. لقد تزوجتها.. ولم تكتف بهذا.. بل غررت بهذه اليتيمة تحت ستار الحب لتأخذ أموالها ولتنفقها على امرأة متصابية.

قالت ناريمان وهى فى هياج كبير:

ـ كفى.. أنا لن أسمح بعد ذلك بتلك المهاترات.. لا تدفعينى لكى أقدم على تصرف لا تحمد عقباه.. فأنا.

ولاول مرة تتدخل سوسن بهدوء قائلة:

ـ لا داعى يا هانم.

ثم تقدمت نحو سيف وشملته بنظرة صامتة للحظة.. ثم قالت:

ـ لم تكن يا استاذ سيف فى حاجة لكل هذه المناورات معى.. فأنا لم أطالبك قط بالارتباط بى.. ولم أدفعك لكى توهمنى باعجابك نحوى.. غرورك صور لك بأنك قادر على السيطرة والاستحواذ فى كل وقت وفى أى مكان.. حتى مشاعر الآخرين تصورت أنها تباع وتشترى كلما أردت ذلك.. ولكن دعنى الآن أعبر عن رأى فيك.. فأنت لا تمثل شيئا عندى ولن تمثل فى أى يوم.. وأعلم أيضا أن لا أحد يفهمك جيدا غيرى.. فلا ثورة خالتى ولا غضب ناريمان هانم يمكن أن يؤثرا فيك.. أنت تريد المعاملة بالمثل ولهذا أرجو أن تفهم جيدا أنك قد غاب عنك الوجه الثانى لى.. وأنا أحذرك من اللعب بالنار.. أريد أموالى فى أسرع وقت.. حتى لا تندم.

التفتت نحو الأم قائلة بعصبية غريبة عنها:

ـ هيا يا خالتى.. فأنا أشعر بالاختناق هنا.. و ..

رمقته بسرعة وهى تنصرف مع أمه وأردفت:



ـ وبالقرف أيضا.

لم يحرك ساكنا.. لم يجرؤ على ذلك.. فقط تابعهما بعينيه وهو فى ذهول.. وقد أخذته المفاجأة وكأنه لم يتوقع أن تكون سوسن مثلها مثل الأخريات.. إنسانة لها مطالب وتعرف كيف تدافع عن حقوقها.. وكأنه اكتشف فجأة أن وراء الملامح الهادئة والساذجة قطة برية مفترسة تخفى تحت أصابعها الرقيقة مخالب حادة يمكنها أن تفتك بكل ما يتصدى لها.. ولكنه فشل أيضا فى اكتشاف الدموع الحبيسة بين جفنيها والتى ما كادت تنصرف إلى الخارج حتى استسلمت لبكاء صامت زاد من حسرة الأم التى كانت تراقبها بعيون مشفقة.. ثم همست قائلة:

ـ أنا السبب يا ابنتى.. ولن ألومك على أى تصرف تقدمين عليه لكى تستردى أموالك وكرامتك.

لم تجبها.. ولكنها كفكفت دمعها فى إصرار كبير تكاد تنطق ملامحه بصيحات الانتقام.

(٥)

بدأ الفجر يزحف فى استحياء نحو الأفق المظلم وكأنه يتسلق جبال الليل بأصابع واهنة وبرغبة متردده.

ترك سيف فراشه بعد ليلة قاسية قضاها متيقظا.. واقترب من النافذة يراقب رحيل الليل بهدوء.. أحس بالظلام يتكور داخل أعماقه.. استدار منزعجا وكأنه يخشى من بشائر الفجر أن تكشف عن حقائق كثيرة ظنها يوما قد استكانت فى قبو النسيان.

وما كاد يترك غرفته حتى تصلبت أرجله فى مكانها عندما فوجئ بناريمان وهى جالسة فوق مقعدها فى نهاية الردهة وهى فى ثبات شديد.. بدت وكأنها قد فارقت الحياة بالفعل.

وبنبرة كشفت الكثير عن اضطرابه قال متسائلا:

ـ هل استيقظت الآن.

ـ بل لم أنم مطلقا.

اقترب منها متغابيا:

ـ حتى أنا.. لقد قضينا ليلة عصيبة.. ولست أدرى كيف أقدمت أمى على هذا التصرف.. لقد حاولت كثيرا أن أفهمها حقيقة موقفى ولكنها كانت دائما تتجاهل مشاعرى للأسف.. كذلك سوسن.. قد أعذرها لأنها لا زالت صغيرة السن.. لكن أيضا ليس من حقها أن تتمادى فى أحلام اليقظة على

حساب الأخرين.. وأنا.

ولكنه صمت فجأة وكأنه شعر بأنه قد تحدث كثيرا على الاقل فى وقت غير مناسب.. جلس بجوارها متململا مع لحظات قلق عنيفة ولم يصبر طويلا ليلتفت نحوها متوددا ثم قال:

ـ بالطبع أنت لست غاضبة منى.. فكثيرا ما تحدث مثل هذه المشاحنات العائلية.. إلا أننى قد نسيت الكثير منها أثناء غربتى فى ألمانيا.. و ..

نهض من مكانه موليا ظهره لها ثم أردف هامسا:

ـ ولست أجد على كل حال أى مانع أن أعتذر إليك.. فالأمر كله لا يعدو سوى سوء فهم شمل الجميع.. وربما..

ولكنها تقاطعه بهدوء:

ـ أجل.. أنا متأكدة من ذلك.. فالأمر لا يزيد عن أنه سوء فهم شمل الجميع إلا بالنسبة لى فقط.. فأنا الوحيدة التى كنت أعلم الحقيقة كاملة.

التفت متسائلا:

ـ أى حقيقة.

ـ الحقيقة التى كنت تعلم أنت بعضاً منها فقط وحاولت أن تخفيها متصورا أنك تعرفها كاملة.

حاول أن يكون ظريفا:

ـ ها نحن عدنا إلى دائرة الألغاز.. ألا تعدين إفطارنا ثم نستكمل

تلك المحاورات بعد ذلك.

أجابت بحزم:

ـ لم يعد لك فى بيتى طعام.

ـ ماذا قلت.

كررت مؤكدة:

ـ كما سمعت تماما.. لم يعد لك فى بيتى طعام.. لقد انتهت الرحلة نهاية عادلة.

قال متوجسا:

ـ أى رحلة.. وأى نهاية.. أنت.

قاطعته وهى تنهض من مكانها وتجاوزته بخطوات قليلة ثم استدارت اليه قائلة:

ـ الرحلة الطويلة التى عشت خلالها أكتم أنات الحسرة عن الجميع.. والتى تعايشت فيها مع جروح الغدر ونزيفها يمتص سنوات عمرى.. إلى أن ظهرت أنت وتمنيت أن تنتهى على يديك.. وهكذا كما ترى.. أو سوف ترى أنها نهاية عادلة.. بالنسبة لى على الأقل.

حاول أن يستنجد بعقله وهو يهمس:

ـ أراك ترغبين فى أن تقولى شيئا.. هل عندك ما تخفيه عنى؟

استرخت أسارير وجهها وهى تقول:

ـ أنا أشهد لك بالذكاء الخارق.. ولكن.. لقد فاتك أن للأقدار تدابير تفوق ذكاء البشر. وأن من خصال الزمان ندرة الأمان.

ـ لا تحاولى اللعب بمشاعرى فأنا

ولكنها تقاطعه بثقة:

ـ أنا لا أنوى هذا.. ولكنى فقط أقربك من الحقيقة الغائبة عنك.

ـ هيا إذن.. هل تطلبين الانفصال.. أم تطلبين تسوية حساباتنا.

ـ بالنسبة للانفصال فهذا أمر متروك لك.. أما ما يخص الحسابات فكما ذكرت لقد سويت بالعدل.. وأنا الآن راضية تماما.

حاول أن يتلطف وهو يربت على كتفها برفق.

ـ لا تجعلى ما حدث بالأمس يؤثر على حياتنا.. فأنا وأنت..

ولكنها تتراجع مبتعدة عن يده وهى تؤكد:

ـ لا تقترب منى.. أنا لست غاضبة من شيء.. كما أننى لست فتاة صغيرة ستحاول أن تغرر بها.. قلت إن كل شيء قد مضى إلى حيث كان يجب أن ينتهى.

قال مترقبا:

ـ إذن هى خدعة.. وتتصورين أنك ستفوزين بنتيجتها.

ـ إنها ليست خدعة.. إنها الحقيقة.

وفجأة انطلق يقهقة بغيظ مكتوم ثم دقـق نحوهـا النظـر قـائلا والشـر يسبقه:

ـ لم اكن أعرف انك على هذا المستوى من السذاجة.. لا تظنين انك قادرة على الاستيلاءعلى أموالى وأن تحتالى على رجـل مثلـى..هـل لعبـت الأحلام برأسك لدرجة انك تتوهمين ذلك و..

صرخ فى وجهها محذرا:

ـ اسمعى حشرة مثلك لن تجنـى ثمـار شـقائى وغربتـى.. أنـا سـيف العشرى قد لا يحتاج الأمر منى غير أن أدوسك بقدمـى حتـى أكتـم أنفاسـك يا لصة.

وكالنمرة زأرت بصيحة عالية:

ـ اخرس.. سيف العشرى الذى تتحدث عنه.. أنـا التـى جعلـت منـه مهندسا يتباهى اليوم بوظيفته.. سيف العشرى هذا بأموالى استطاع أن ينعـم خمسة عشر عاما هو وأسرته.. لولا أموالى لكنت الآن بائعا متجولا أو أحد لصوص المنازل على أكثر تقدير.. لولا أموالى لكانت أمك الآن تنتقـل مـن طريق إلى آخر تمارس التسول من الآخرين.. ولولا أموالى لكانت سوسـن هذه تعيش حتى الآن فى ملجأ الأيتام.. و ..

أسكتتها صفعة عنيفة على وجهها وهو يقول ثائرا:

ـ لقد جننت بالتأكيد.. لقد أفقدتك الغيرة عقلك.. أنت مخرفة بلا شك أى أموال هذه التى أنفقتيها على أثناء سفرى.. وكيف تتجرئين هكذا بـالقول

على أمى.. أرأيت كيف انك أصبحت مخرفة.. سأحجر عليك وسأطلب بالوصاية عليك يا لصة.

ـ أنا لست لصة يا فتى.. أخوك هو اللص الدنىء.. أخوك هو المجرم الذى تذلل واستكان حتى تمكن.. أخوك الذى طعننى بأقذر سلاح يمكن أن يستعمله انسان.. فكانت طعنة الخيانة... أخوك الذى أنقذته من الضياع بعد افلاس تجارته ومنحته من حبى وأملاكى حتى استعاد قوته فقضى على أو حاول ذلك.. وخدعنى مع شقيقة سوسن وهرب.. ليتركنى وحدى أتصدى لجراحى قبل قلة حيلتى.. وألعق نزيف الخيانة والغدر قبل قهرى ومذلتى.

قال وهو تائه كأنه يهذى:

ـ مستحيل.. أنت كاذبة.. أخى كان رجلا شريفا.. و ..

استمرت فى حديثها دون أن تعيره اهتماما وكأنها تحدث نفسها:

ـ سنوات طويلة مضت.. كان أخوك يتعامل مع زوجى قبل وفاته.. ثم بدأ يلعب لعبته بعد موته وراح يبثنى حبه ويلوح لى بإخلاصه ووفائه.. لم أقاومه كثيرا واستسلمت له.. منحته كل ثقتى.. أحببته بعنف حتى أعمانى ذلك الحب عن كل ما كان يرتبه.. إلى أن حانت الفرصة له.. وهرب.. هرب ليتزوج من امرأة أخرى ولينعم معها بأموالى.. إلى أن كان حكم القدر وحدثت الحادثة التى لقيا فيها مصرعهما.. وظللت أنا أقاوم الأيام وتقاومنى.. ثم ساقتنى الظروف إلى عادل شرف.. وتجدد أملى فى

الانتقام.. وأتممت معه الاتفاق لكى يتودد إلى سوسن ويتزوجها بصفتها الوريثة الوحيدة لأختها ثم يسترد أموالى ويعود بها إلى لنتزوج وأمنحه نصف ما أملك.. و ..

مسحت دمعة تدلت من طرف عينيها فى كبرياء.. وأكملت:

ـ ثم جئت أنت فى وقت غير مناسب.. واضطررنا لتغيير خطتنا.. فوجودك قلب كل الموازين.. ثم حدث ما حدث.

جلس والانهيار يزلزل كيانه متسائلا فى انكسار حقيقى:

ـ وما الذى دفعه لمحاولة الارتباط بها بعد ذلك.

أجابت بلا مبالاة:

ـ هذا شأنه.. فقد يبدو أنه أحبها فعلا.

دس وجهه بين كفيه كأنه يحاول عدم مواجهة الحقيقة.. بينما غابت عنه دقائق قليلة ثم عادت وهى تحمل بعض الأوراق القديمة ومدتها اليه قائلة:

ـ خذ.. تلك رسائل أخوك لى وصوره معى طوال فترة ممارسته للعبته الدنيئة معى.. انظر اليها جيدا لتستمتع بملامح البراءة التى كانت تبدو عليه.. انظر اليها جيدا، لعلك ترى فيها صورة نفسك.. انظر اليها لتعلم الحقيقة كاملة ثم انعم بعد ذلك بضمير هادئ.. إن استطعت.

تحرك بخطى ذليلة وهو يقلب الأوراق بين يديه المرتجفة.. وما إن وصل إلى غرفته حتى ألقى بنفسه فوق الفراش وكأنه يلقى بجسده داخل



بئر عميق يبتغى الانتحار عند أعماقه السحيقة.

سارعت أحداث الماضى تتلاحق أمام عينيه.. تذكر إغداق أخيه عليه وكيف كان يراه مثلا أعلى فى أعظم صورة للرجل الناجح.. وكيف استطاع من خلال تلك الأموال أن يحقق ذاته بل ويرتفع بها إلى قمة الكبرياء الذى ترفرف فوقه رايات الغرور.. أغمض جفنيه متسائلا فى صمت:

.. هل كانت زوجة أخيه تعلم بتلك التفاصيل.. هل كانت تعلم أن أخاه قد أتم لعبته الدنيئة من أجلها..

حملق إلى سقف الغرفة بنظرة مذعورة وهو يستطرد:

.. وسوسن تراها كانت على علم بما حدث.. هل كانت تدرك أنها أموال قد أخذت بالغدر ولهذا راحت تستهين بها وتبعثرها فى كل مكان.. وأنا أحد تلك المنافذ.. لابد أنها تعلم والا لماذا لم تطالب بإرثها رسميا.. لابد أنها تعلم.. وأنا الوحيد الذى بدوت فى أعين الجميع فى أحقر صورة للسذاجة والانحطاط.

قفز من فوق فراشه كأنه يهرب من ألسنة اللهب التى تراشقت حوله فجأة أسرع إلى حقيبته وراح يبعثر الأوراق باضطراب كبير حتى التقط إحداها والتهم سطورها بنظرات زائغة ثم اندفع خارجاً اليها ولوح نحوها بالورقة بحماس وكأنه ينقذ البقية الباقية من كبريائه الذبيح.. قائلا:

ـ هذه نسخة زواجنا العرفى.. مزقيها.. احرقيها.. لم أعد أبالى أى شىء فأنا

ولكنه صمت فجأة أمـام ابتسـامتها الفـاترة والتـى أخرسـته بهـا.. ثـم قالت بهدوء:

ـ ألا زلت غير مصدق أننى نضجت بما فيه الكفاية.. هذا الانفعـال الذى يبدو منك لن يحرك فى كيانى ساكنا.. و ..

استدارت وخطت بضعة خطوات ثم التفتت اليه والشرر يكاد ينطـق من عينيها وأردفت قائلة:

ـ لقد تزوجتك أمام محام وشهود.. وفر علـى نفسـك أى محـاولات أنت تعلم مسبقا أنها لن تفلح معى.

وقذفت بالورقة فى اتجاهه فسقطت بالقرب من قدميـه وهـو يتابعهـا بذهول.. بينما ارتفع صوتها فى صرخات هستيرية قائلة:

ـ التقطها.. التقطها يا سيف بك.. وكفى ألاعيـب صبيانيـة.. واعلـم أن وجودك الآن هنا غير مرغوب فيه.

اهتزت قدماه فى رعشة عنيفة.. أحس بها نذيرا بأنها لن تقوى على حمل ذلك الكيان المتهالك.. حاول أن ينطق بأى شيء.. بأى حرف..

يصرخ فى هلوسة أو يسبها فى عصبية.. يدافـع عـن نفسـه.. ولكـن لسانه قد تملك منه الشلل وعقله قد رحل عنه الفكر.

تحرك ببطء شديد وهو فى طريقه إلى خارج المنزل وما كاد يصـل إلى نهاية الردهة حتى تسمر فى مكانه عندما صاحت آمرة:

ـ انتظر.. أعرفك بأنني ألغيت التوكيل الخاص بك في اليوم التالي مباشرة.. فلا داعي لأن تعرض نفسك للمشاكل القانونية.

أغلق الباب بقوة من خلفه وكأنه يصفعها بعنف على وجهها أو تمنى أن تكون هذه الحقيقة.. وانطلق بسيارته وكل الهواجس تدور في رأسه كالدوامات المتلاحقة.. انتابه احساس بأنه هارب يبحث عن مأوى يختبئ فيه.. مشاعر الخوف من المستقبل كانت تضغط على صدره بقوة.. يريد الأمان حتى ولو كلفه ذلك أن يركع تحت أقدام من يملك منحه ذلك الاحساس ويبكي نادما.. يريد أن يدافع عن موقفه.. أن يثبت حسن نيته. ولكنه اكتشف فجأة الحقيقة المريرة.. بأنه بلا صديق.. وبأنه يحاول أن يكون له صديق في يوم ما.. وكان قراره بأن يعود إلى بيته القديم.. والوحيد.

الطريق بدا أطول مما اعتاد عليه.. وحرارة الشمس كاللهيب.. أحس بها يذيب صهدها في جوف حبات العرق فوق وجهه.. تشابكت الخواطر في رأسه.. حاول أن يتصور موقف أمه عندما يعود اليها.. رتب بعض الأعاذير لعلها ترضى عنه.. رآها باكية وتارة أخرى تصفعه في حسرة.. تراقصت أمام عينيه صور وصوله منذ الوهلة الأولى.. التمس لنفسه شعورا بأنه وصل الآن فقط من غربته.. بل كان شديد التمني لهذا الشعور.. اقتحمت مخيلته صورة سوسن.. رآها ثائرة عنيفة تمطره بالتهديدات والوعيد.. حاول أن يراها هادئة راضية ولكن الحقيقة دائما كانت تلذعه بقوة فيعود إلى رشده.. ليكتئب من جديد.

وصل بسيارته أمام المنزل عند الغروب.. وكأنهما على موعد.

سكن برهة قبل أن يضغط على جرس الباب.. الساعة السابعة والربع.. كرر الضغط مرة تلو الأخرى.. دس مفتاحه فى الباب وفتحه.. وما إن دخل إلى منتصف الردهة حتى تصلب فى مكانه.. كانت سوسن جالسة والذهول يسيطر على ملامح وجهها.. بدت غارقة فى السواد حتى الايشارب الذى أحاطت به رأسها كان قاتما يدعو للتشاؤم.

وبلا ارادة همهم بنبرة ضعيفة:

ـ أمى.. أين أمى؟

انتبهت لوجوده كما لو كانت لم تشعر به إلا فى هذه اللحظة.. شملته بنظرة صامتة وجامدة بينما هرع سيف مندفعا يفتش حجرة بعد الأخرى ثم عاد اليها والاضطراب يملأ كيانه.. قائلا:

ـ سألتك أين أمى.. أجيبى أين هى؟

وقفت أمامه وكأنها آتية من العالم الآخر.. ثم همست بصوت تسبقه حشرجة الغيظ المكتوم:

ـ لقد انتهى كل شىء.

ـ هل.. هل ماتت؟

تحركت بثبات ثم قالت:

ـ أجل.. وأحمد الله أننى استطعت تنفيذ وصيتها الأخيرة.. و ..

اقتربت منه ودققت اليه النظر ثم أردفت:

ـ ألا تريد أن تعلم وصيتها الأخيرة.

غاص بنظرته فى عينيهـا وهـو يسـعى للتحكـم فـى رعشـة شـفتيه.. فبادرته:

ـ لقد أوصتنى بألا تحضر دفنها.. رفضـت أن تـراك أو تراهـا فـى هذه اللحظة الطاهرة.. لم ترد أن ترى الجريمة البشـعة المتمثلـة فـى كيـانك قبل أن تلقى ربها.

تهاوى على مقعده وهو يخفى وجهه بيديه مرددا:

ـ لا تظلمينى أرجوك.. لا تظلمونى كلكم.. فأنا..

ولكنه لم يتمالك نفسه وراح ينتحب فى بكاء قاس.. بينما عادت هـى إلى جلستها تراقبه باندهاش.. وقالت:

ـ لم أتوقع منـك هـذا.. لـم أتصـور قـط انـك مثـل الآخريـن.. لديـك مشاعر وأحاسيس.. كيف يمكن لعينين مثل عينيك التى كالصخر أن تعـرف الدموع الطريق بين جفونها.. كيف يمكن لتلـك الملامـح القاسـية أن تهـتز.. حقا إنها صدمة أخرى فأجاءتنى بها.

ـ أرجوك.. أنت لا تعلمين الحقيقة.. فأنا

قاطعته بحدة:

ـ أى حقيقة.. أى حقيقة تلك التـى تجعـل مـن انسـان مثلـك أن يقـدم على تصرف دنىء مثل هذا.. أى حقيقة التى تجعلك تضحى بأمك من أجـل

طموحاتك المدمرة.. ألم تتوقع لحظة أننى من الممكن أن أطالب بحقى فى الميراث، ألم تتوقع أن أكون مثلك فأدخلها تحت مسئولية القانون.. ومن أين لنا أن نعلم فربما يكون هذا الخاطر قد راود المسكينة فماتت جزعة.. ماتت والحسرة تمزق قلبها.

ـ لا تحملينى كل المسئولية.. فأنا لم أكن أنوى بك غدرا.. بل كنت قادما اليوم اليك لأحقق ما وعدت به أمى.

رمقته بنظرة ساخرة.. ثم قالت:

ـ من قال لك إننى كنت سأقبل.. أعتقد..

ولكنه يقاطعها قائلا:

ـ على كل حال هذا ليس وقته.. المهم عندى أن تعرفى الحقيقة قبل أن تخدعك المظاهر ويدمرك العناد.

ـ ألا زلت مصرا بأن هناك أمورا خافية عنى.. وتطالبنى أيضا أن أصدقك.. اصدق الانسان الذى..

ولكنها توقفت عن الكلام عندما ترامى إلى مسامعهما عدة طرقات خفيفة على الباب.. سارت بخطى زاحفة نحو الباب وهناك ظهر عادل شرف الذى تردد برهة قبل أن يتقدم بخطوة واحدة عندما فوجئ بوجود سيف.. وما إن ألقى عليه بعض كلمات العزاء حتى بادره سيف بجفاء قائلا:

ـ كيف تسمح لنفسك أن تحضر فى وقت متأخر كهذا؟



ـ جئت أطمئن على سوسن.. ثم لن ألومك على هذا الأسلوب نظـرا للظروف التى أنت بها الآن.. و ..

تدخلت سوسن قائلة:

ـ عادل بك كان معى منذ الصباح.. ولولاه ما كنت اسـتطعت عمـل أى شيء.

قال منفعلا:

ـ هذا لا يعطيه الحق لكى يحضر فى هذا الوقت.

ـ ألا تنتظر لتسمع بقية حديثى.

التفت نحوها ورمقها بنظرة غير مبالية.. ثم تحول إلى عادل شـرف وما كاد ينطق بحرف واحد حتى لاحقته قائلة:

ـ إنه خطيبى.. ألا ترى أن هذا يعطيه الحق ليطمئن على

استدار اليها مذهولا.. وردد:

ـ ماذا.. خطيبك.. ألا تدركين أى جريمة سـوف تركبينهـا فـى حـق نفسك وحياتك بارتباطك من انسان مثل هذا.

وهنا صرخ عادل شرف محتدا:

ـ لا تتهور فى أسلوبك والا أسمعتك ما لن تنساه فى حياتك.

لم يعره اهتماما واستطرد قائلا:

ـ سوسن.. أنت ضحية مؤامرة قذرة.. هو وناريمان كـان ينسـجانها من حولك لولا ظهورى فى الوقت المناسب.



قالت بسخرية مست الكثير من كبريائه:

– ويا ترى أى مؤامرة.. أكانا يبتزان أموالى فى شكل قروض متقطعة.

صاح بقوة فى ثورة عارمة:

– لا.. إنهما..

وراح يكشف لها عن كل شىء.. كان يقص عليها وكأنه يهذى حدثها عن أمر شقيقتها وأخيه.. وكذلك عن موقف ناريمان مع عادل شرف.. ثم أخبرها بتفاصيل لقائه بناريمان فى مكتب عادل.. بدا كالثور الهائج وهو يقطع المكان بخطواته المضطربة..

استنجد بكل ملامح الصدق على وجهه حتى يتمكن من اقناعها.. و ..

فجأة التفت تجاه عادل شرف قائلا:

– اسأليه.. استفسرى منه عن كل شىء.. لعل لديه الشجاعة لكى يخبرك بالحقيقة كما أخبرتك أنا.

مضت لحظات صمت متوترة.. بينما بدت سوسن باردة الأسارير وهى تستطلع وجهيهما بنظرات ثابتة قاسية.

ويقطع عادل شرف الصمت بكلمات كان لها دوى القنبلة قائلا بهدوء:

– ناريمان هانم موكلتى.. فلا داعى للمراوغة الغير مجدية

صرخ بأعلى صوته:

– أنت كاذب.. ولدى الدليل على صدق كلماتى.. و ..

قاطعته سوسن بحدة:

ـ أستاذ سيف.. مواقفك السابقة لا تجعلنى أميل لتصديقك.

صمت مذهولا وهو يراها تحملق اليه بنظرات لا تحوى أقل القليل من الاحترام.. بينما تحرك عادل شرف متأهبا للانصراف قائلا:

ـ هل تسمحين لى بالانصراف.. فالوقت..

ولكنها تسارع قائلة:

ـ لا.. من فضلك ابق معى قليلا فأنا أريدك فى بعض المسائل القانونية.

وبنبرة متهالكة قال سيف منكسرا:

ـ إذن.. وجودى هو الذى أصبح غير مرغوب فيه.

مزقه صمتها وهو يتخذ طريقه للانصراف.. ثم توقف عند الباب وهو يوجه كلماته اليها قائلا:

ـ أرجوك لا تتخذى أى قرار قبل أن تتبينى الحقيقة.. فأنا

ولكنها تقاطعه مرة أخرى:

ـ أعتقد أن بيننا حسابات يجب تصفيتها.. وعلى أى حال سيتولى الاستاذ عادل كل شيء.. فأنا أريد كل الأموال التى سحبتها منى لمشاريعك الخاصة.

تسلل بنظرة تجاه عادل ثم تحول اليها بعينين ذابلتين وكأنه سيراها لآخر مرة فى حياته.

ثم أغلق الباب من ورائه وكل شريان فى جسده ينتفض بقوة.

(٦)

الليلـة مقمـرة.. النجـوم افترشـت السـماء متلألئـة فـى أبهـى صـورة وكأنها احتشدت جميعها لتشهد على هذا الحدث الجلل.

سيف العشرى يبكى..

بدت أصـابعه مرتجفة وهى تحيط بعجلـة القيـادة.. وأنفاسـه متلاحقـة بشدة وكأنها فى سباق مع دموعه.. السيارة تندفع بسـرعة جنونيـة فـى كـل اتجاه وإلى غير هدف.. تعمق فى نفسه إحساسه بـالوحدة.. والخـوف.. فقـد الأمان قبل الثقة. خيل اليه أن كل شىء يطارده ويعلـم حقيقـة أمـره..وبـأن النسمات قد تحولت إلى أعاصير قاسية تدمر كل من تلحق بـه.. والأشـجار التى تتمايل بأفرعها لتصبح سياط اللعنـة فـوق ظهـره.. حتـى الأبنيـة الشـاهقة رآها تتشقق من فرط غيظها.. سمع ساكنيها وهم يصرخون به.. هذا هو لقيـط البشرية.. استقر بـه المطـاف عنـد سفح الهـرم.. تحـرك فـوق الرمـال العتيقـة متوغلا إلى أعماق الصحراء ثم أوقف السيارة ونزل منها متجولا على قدميه.. اقترب من حافة عريضة.. تصورها نهاية الطرف الآخر من الأرض.. أسـقط نظره إلى الهوة السحيقة فكاد يرى معالم القاهرة كلها وهى مضيئة أو تمنى أن يحدد موقع منزله ليطمئن أنه بعيد جدا عن موقع جريمته.

وبـالرغم مـن أن المكـان بـدا متوحشـا والظلمـة علـى المـدى قاسـية مخيفة.. إلا أنه اطمأن لموقعه المنفرد وراح يتلفت حوله ليستكشف المكـان فاصطدم بصره بتمثال أبى الهـول الشـامخ وقـد تراجعـت علـى مقربـة منـه

الأهرامات الثلاثة. فاقترب من صخرة كبيرة وجلس بجانبها كأنه يحتمى بها وراح يستطلع مرة أخرى الأضواء المختلفة الساطعة عند السفح.. حاول أن يتبين توقيت ساعته تحت ضوء القمر ولكنه فشل.. لم يتخلص من عود الثقاب بعد أن أشعل سيجارة واقترب به إلى ساعته.. الثانية وثلاث دقائق بعد منتصف الليل.

ومن خلال الصمت الرهيب بدأت الهواجس تدق طبول الأحداث فى أعماقه أحس بنفسه وهو يغوص ببطء داخل دوامات القلق التى أخذت تجذبه تارة وتارة أخرى تقذفه إلى أرض الواقع ليرى نفسه مكبلا بقيود الحيرة والتوتر.

.. إلى أين..

قالها بحسرة دفنية.. الطرق كلها قد سدت فجأة أمامه.. انهارت آماله التى تعايش معها منذ صباه.. استعاد فى ذهنه صورة أمه وهى تلعنه قبل وفاتها.. حاول أن يستجمع ما يمكن أن تقدم عليه سوسن.. غاب طويلا مع أفكاره لعله يجد وسيلة يتعامل بها مع ناريمان.. و ..

فجأة تقوس ظهره وكأنه يحاول أن يدفن نفسه فى الصخرة الكبيرة التى يستند عليها وسرت قشعريرة مرتعبة داخل عروقه. عندما تراءى له على البعد كيان هائل يتحرك فى قفزات وعلى مقربة منه شبح آخر لم يستطع تحديد معالمه.. كاد الخوف أن يفقده عقله.

اضطرب السيجار بين أصابعه فسقط مختفيا بين ذرات الرمال.. أشعل عود ثقاب تلاه بآخر وثالث وفى كل مرة يزداد تأكيدا من اقتراب

الأشباح نحوه..حاول أن يقف ليقفز إلى سيارته ولكنه شعر بالشلل يقيد قدميه.. راودته فكرة مجنونة عندما التفت تجاه الهوة السحيقة ولكنه تراجع عنها مسرعا بعد أن أدرك أنه ميت لا محالة.

لحظات رهيبة أحس سيف من خلالها أنه قد ولد لتوه فقط.. انسان بلا ماض ولا مواقف.. تجمعت كل مشاعره وتكورت داخل قلبه المرتجف.. أنه يواجه مصيرا مجهولا.. فابتلع ريقه الجاف مستسلما وكأنه يبتلع باقى حياته.. وسكن مسلطا نظره تجاه الخيالات المتحركة فى ترقب عصيب.. وبدأت عيناه تستوعب الصورة رويدا رويدا.. وما كانت الا لجّمال يسحب جمله الكبير فى وقت غير معتاد للآخرين والرجل يطلق سراح عباءته للنسمات مرة ثم يجذبها إلى جسده مرة أخرى فبدا على البعد وكأنه شبح عابث ينتفخ ويبدو قزما فى أونة أخرى.

ولم يكن الجمال أحسن حالا من سيف عندما فوجئ به منكمشا وراء الصخرة فظن به الظنون.. قد يكون قاطع طريق.. أو قتيلا ألقى به المجرمون فى تلك المنطقة وهربوا.. ولكنه لمح وجود السيارة على بعد خطوات.. وراوده الاطمئنان قليلا عند اقترابه منه وهو لا يزال فى هرولته.

ثم صاح بصوت قوى:

ـ السلام عليكم.

عبثا حاول سيف أن يكون متماسكا وهو يجيبه:

ـ وعليكم السلام ورحمة الله:

ولكن الرجل يبطئ من خطواته بعد أن تجاوزه ببعض منها ثم استدار نحوه مترقبا حذرا:

ـ هل أستطيع أن أقدم لك خدمة يا بك؟

اعتدل سيف فى جلسته قليلا ثم قال:

ـ أشكرك.. فأنا فقط استنشق بعض الهواء النقى.

بدا على الجمال أنه غير مقتنع بهذه الاجابة فقال مندهشا:

ـ الآن.. وفى هذا الوقت المتأخر.

ثم تلفت حوله وقد أرسل نظره إلى داخل السيارة ثم قال مدعيا الفطنة:

ـ أمعك أحد يؤنس وحدتك.

وفهم سيف ما يدور بخلد الجمال فأجاب بعد أن اطمأن إلى وجهه:

ـ لا.. ولست هذا النوع من الرجال.. فأنا حقيقة كنت فى حاجة إلى الانفراد بنفسى.. فلقد اغتربت بعيدا عن مصر وأشعر بالحنين لأن أراها فى كل لحظة.

اقترب الرجل متوددا:

ـ وأين كنت؟

ـ المانيا.. كنت فى المانيا.



وهنا ابتهج الرجل ثم شد من قامته وأبدى بعض الاشارات بيده وهو يثرثر بالالمانية فى جمل صحيحة حاول أن يظهر تمكنه منها.

قاطعه سيف باندهاش:

ـ أنت تتقن الألمانية تماما.. فكيف..

لاحقه الجمال قائلا بفخر:

ـ أنا أتقن الالمانية والانجليزية والفرنسية والايطالية.. أنتم تتعلمـون فى مدارسكم وجامعاتكم خمس سنوات أو عشرا أو أكثر قليـلا.. ولكـن مـن الكتب أما أنا فلا زلت أتعلم هنا.. فـوق تلـك الرمـال الغاليـة.. منـذ أربعيـن عاما بل أعتقد أكثر من هذا.. قـابلت أغلـب الأجنـاس وتعلمـت لغتهـم لكـى أتمكن من التعامل معهم.. إنها وسيلة رزقى.

أفلتت من بين شفتى سيف كلمة بلا ارادة:

ـ أحقا.

مرة أخرى يثرثر الرجل بكلمات سريعة أشعرت سيف بالحرج لأنـه لم يفهم منها كلمة واحدة وأدرك الجمال الموقف.. فقال ضاحكا:

ـ لقد كنت أحدثك الآن بالايطالية.

وبدأت الألفة تزداد بين سيف والجمـال مـع مـرور الدقـائق وأحـس بالظلمة وقد خففت من وطأتها وبالاتزان يعود إلى كيانه.. ويفاجئـه الرجـل فى النهاية قائلا:

ـ هه.. ألا تقل لى سبب وجودك فى هذا الوقت.. لقد كان واضحا انك مهموم ومغتم.

ابتسم سيف لملاحظة الرجل فقال متوددا:

ـ أخبرنى أنت أولا.. ما الذى جعلك تسير مع جملك فى هذا الوقت المتأخر وقد لاحظتك لا تسير فى اتجاه ثابت كأنك خرجت للتنزه.

ضحك الجمال بصوته القوى وهو يقول:

ـ تلك قصة طويلة.. بدأت منذ عشر سنوات.. ولا أحب أن أتذكر أحداثها.. ألم أقل لك إن هناك فرقا كبيرا أن تتعلم من الكتب فقط ومن أن تعلمك الحياة نفسها بأحداثها ومواقفها.

جذبت تلك الكلمات انتباه سيف وأدرك بأن وراء ذلك الرجل الكثير.. تململ قليلا فى جلسته قبل أن يقول له:

ـ ألا تجلس معى قليلا.. فأنا أشعر برغبة شديدة لمحادثتك.

سارع الرجل وكأنه يبادله الشعور.. قائلا:

ـ على أن تخبرنى بحقيقة وجودك هنا فى هذا الوقت.

قال سيف مبتهجا:

أعدك بذلك.

بدأ الرجل يعبث فى الرمال بعصا صغيرة كان يمسك بها وكأنه يكشف عن ذكريات قديمة قد طواها الثرى قبل النسيان.. ثم قال بهدوء:



إنها قصة قديمة.. ولكن قبل كل شىء أحب أن أخبرك بأننى أب لثلاثة أبناء أحدهم طبيب عيون معروف والثانى مهندس كيميائى متفوق.. وأحمد الله أننى وفقت فى تربيتهم.. وهما لا ينقطعان عن زيارتى على الأقل مرة فى الأسبوع.

ـ والثالث.. أنت لم تحدثنى عنه.

ابتسم الجمال قائلا:

ـ هذا هو بيت القصيد.. فمنذ عشر سنوات كان ولدى الأخير قد اقترب من حصوله على ليسانس الآداب.. انجليزى.. حاولت أن أوجهه إلى قسم التاريخ ولكنه رفض.. المهم.. فوجئت ذات يوم باختفائه.. لم أترك مكانا إلا وذهبت اليه لعلنى أجده.. ولكننى لم اعثر عليه.. كنت أنطلق مع هذا الجمل فى الليل أبحث وسط الكهوف إلى أن ظننت أنه قد سقط فى هوة سحيقة وابتلعته الرمال الناعمة. وفى تلك الفترة اكتشفت أشياء غريبة عن خصال ذلك الجمل العظيم. فاقتربت أكثر منه حتى أصبحنا أنا وهو فى ألفة قوية أكاد أشعر من خلالها أنه يحدثنى وأحدثه.. وأفهمه ويفهمنى.. و ..

قاطعه سيف بلطف:

ـ وابنك.. هل..

عاد الرجل لضحكته القوية:

ـ حقا أنا لم أكمل لك الحديث.. فوجئت بعدها بأشهر قليلة برسالة منه فهمت من سطورها أنه أحب فتاة ايطالية وذهب يعيش معها هناك.. لا



أعرف إن كان تزوجها أم تركها.. ولكن أخباره تصلنى على فترات متباعدة.. فهو يعلم أننى لن أقبله إذا عاد.. ولأننى..

ومرة أخرى يقاطعه سيف:

ـ لماذا.. فهو ابنك وقد أخطأ.

قال الجمال بحزم:

ـ إنه لم يخطئ.. بل فكر ودبر ثم قرر.. وباع.. ونحن قوم لا نشترى من يبعينا حتى ولو كان ولدنا.

قال سيف وقد جذبه حديث الرجل:

ـ على كل حال سنعود إلى الحديث عن ولدك ولكن أخبرنى أولا بقصتك مع الجمل.

قهقه الجمال بقوة حتى كاد ينقلب على ظهره.. ولمع وجهه تحت ضوء القمر ووجد سيف نفسه مدفوعا لأن يختلس نظرة سريعة إلى وجه أبى الهول ويقارنها بوجه الجمال النحاسى.. بينما أردف الرجل قائلا:

اسئلتك تذكرنى بطريقة ألف ليلة وليلة.. ولكنى سأخبرك.. فى هذه الفترة التى كنت أبحث فيها عن ابنى ليلا كنت أصطحب جملى فأكتشف أنه يبدو قويا فى صباح اليوم الذى يليه ومطيعا ولا يظهر تذمرا أو تمردا كما يحدث فى كثير من الأحيان.

ـ لا زال الموقف غامضا بالنسبة لى.

ـ ألم أقل لك إن تعليم الكتب ليس كافيا.. انها الخبرة يا بك.. لقد أدركت على الفور أن لهذا الحيوان الهائل حقوقا كنت أجهلها فى السابق بالرغم من أنه مصدر رزقى الوحيد.. إنه يطالب بحريته وبأن أشبع فيه احساسه بالاباء والكبرياء بعد يوم طويل من الإذلال والمهانة.. ولهذا لا أركبه ليلا أبدا.

قال سيف وهو لم يستطع أن يخفى نبرته الساخرة:

ـ أى إذلال.. وأى مهانة.

أجابه الجمال وهو يربت على أحد أرجل الجمل وقد رفع رأسه لينظر اليه بحب غريب وكأنه يحدثه فى صمت عن جهل هذا الشاب الساخر:

ـ إن أقسى مشهد أقوم به مرات يوميا وأنا أجبر هذا الجمل الهائل العملاق أن يبرك على ركبتيه لأجعل طفلة صغيرة تمتطيه أو فتاة مدللة تريد أن تلتقط صورة من فوقه.. بالرغم من أن ذلك هو مصدر رزقى الوحيد.. ولكننى أشعر بالأسى لأنه رمز حقيقى لسقوط الكبرياء وانهيار الشموخ أمام الظروف ولقمة العيش.. ثم..

ودفعه بطرف أصبعه وهو ينهض مستطردا:

ـ انظر.. انظر اليه ألست تراه وديعا.. ولكن هل يمكنك أن تواجهه لو كان شرسا وأنت وحدك.. هل يمكنك أنت أو سواك أن يجبره على أن يبرك على ركبتيه.. أراهن على ذلك.. ولكنه يطيع.. لأنه يفهم.. يفهم أنها الوسيلة الوحيدة التى أرتزق منها ومن خلاله يطعمنى ويطعم أولادى وهو

أيضا يحصل على قوته.. لقد تعلمت منه الكثير.. تعلمت الصبر والعطاء وتحمل الأزمات والصدمات وأنا أواجه رحلة الحياة..

بدا سيف مشدوها وهو يراقب انفعال الرجل الذى فاجأه بقوله:

ـ إنه مجرد حيوان فى نظرك.. ولكنه فى نظرى أغلى من ابنى الذى هرب مع فتاته التى بهرته بشعرها الأصفر.. ابنى الذى فضل الهروب تاركا وراءه أهله وبلاده وحضارة عريقة يحج اليها الآلاف ليقفوا أمامها مبهورين وفى أعماقهم إحساس بالضآلة.. ترك كل هذا من اجل لحظة غباء سيدفع ثمنها يوما.. هو تعلم الانجليزية ليتعرف على أحدث الاسطوانات والرقصات وهم الآن يسعون لتعلم الهيروغليفية ليتعرفوا على حضارتنا ويتعلمون منها.. هو وأمثاله يذهبون إلى هناك قد يعملون أطباء أو مهندسين أو تجار أو قوادين وينتهى وجودهم بمجرد موتهم أو عودتهم. أما هم فيدرسون الفلك من خلالنا ويكتشفون حقيقة الأمراض المستعصية عن طريق أجدادنا وما تركوه من أسرار العلم.. هم يبحثون عن حضارة لهم وأمثال ابنى يعتبرونها تحت الرمال.

تململ سيف وكأنه يشعر بأن الحديث موجه اليه.. ثم قال بهدوء:

ـ يبدو أنك شديد الغضب من ابنك.. ولكن ليس كل من هاجر وعاد إلى بلده فى مثل هذه الصورة التى فى ذهنك.. فبعضهم أطباء مشهورون.. ومهندسون مرموقون.. ورجال أعمال ناجحون..

جلس الجمال وهو يعود إلى هدوئه.. ثم قال:



ـ جميل منك أن تقول بعضهم.. ولكن تأكد أن أغلبهم قد فقد الاحساس بالانتماء إلى وطنه ولهذا تراهم يتفننون فى أسرع الطرق للربح الوفير فتكون مشاريعهم هزيلة وان كانت مبهرة.. و ..

ضحك من قلبه وهو يقول:

ـ أنا لا أستبعد أن أرى أحدهم يوما يتاجر بأكياس اللب المقشر داخل ورق مزركش مجاراة لسرعة العصر كما يقولون.. ومن سخرية الزمان ان البعض منا تجده يقول إن مواعيدى انجليزية بكل فخر بالرغم من أن الانجليز أنفسهم عرفوا الساعة منذ فترة وأجدادنا عرفوها بطريقتهم منذ أكثر من أربعة آلاف سنة.

عاد سيف لسخريته من حديث الجمال.. وقال متلطفا:

ـ المفروض أن يقولوا.. إن مواعيدنا فرعونية.

لاحقه الرجل بثبات:

ـ من يعلم.. قد يحدث هذا يوما.

انسحبت الابتسامة من فوق شفاه سيف أمام اصرار الرجل وايمانه الشديد بما يقوله.. بينما أردف الجمال مبتسما:

ـ لقد سرقنا الحديث عن ولدى.. ولم تذكر لى سبب مجيئك هنا وحدك كما وعدتنى.

انتبه سيف إلى نفسه وكأنه تذكر فجأة واقعه المرير بعد أن غاب

فى رحلة بعيدة مع كلمات الجمال.. وازدرد ريقه تأهبا للحديث.. ثم قال وهو يلتفت إلى لا شيء:

ـ أشعر بالظمأ.. ولا أعتقد أن هناك أحدا يمكنه أن...

ثم نظر فى ساعته.. الثالثة إلا سبع عشرة دقيقة.

وقبل ان يستكمل حديثه كان الرجل قد نهض برشاقة تسبقها شهامته قائلا:

ـ سأحضر لك زجاجة ماء مثلجة فورا.. ولكن..

نظر إلى الجمل ثم التفت اليه مستطردا:

ـ سأتركه بجوارك حتى أعود مسرعا.. و ..

صرخ سيف منزعجا بصدق:

ـ لا.. لا.. خذه معك فأنا لا أطمئن إلى ما يضمره لى جملك العزيز.

عاد الرجل لضحكته المجلجلة.. وانطلق مع جمله فى هرولة سريعة بينما راقبه سيف بعينين مندهشتين حتى توارى عنه وسط ضباب الفجر القادم.. ثم سحب نظرته تجاه أبى الهول وراح يستطلعه كما لو كان يراه لأول مرة أو كأنه يسترجع فى ذاكرته بعض المعلومات التى قرأها فى الكتب عن تاريخ الفراعنة.

لم يكد سيف ينتهى من سيجاره الثانى حتى ظهر الجمال مرة أخرى وهو يلهث بجوار جمله فى سعادة حقيقية.. ثم اقترب منه وهو يحمل

زجاجتين ومد اليه بإحداهما قائلا:

ـ أرجو ألا أكون قد تأخرت عليك.

لم يجبه سيف وروى ظمأه بنصفها ثم قال:

أشكرك.. أنت رجل طيب.. وأنا أشعر بالارتياح نحوك.

ازداد الجمال زهوا أمام ذلك الإطراء فسارع بمناولته الزجاجة الأخرى وقال:

ـ وهذه أيضا لك.

ـ ما هذا.

ـ ويسكى.. ألا تشرب الويسكى كالأجانب.

ضحك سيف من قلبه وهو يشير اليه بيده:

ـ لا.. أنا لا أشربه مثل الاجانب.. ولكنى شربته مرة عقدت فى حينها صفقة لا زلت أعانى من نتائجها حتى الآن.. وهى

قاطعه متوددا:

ـ لا تخش شيئا.. لن أعقد معك صفقات أخرى.. إلا لو شئت أن تساومنى على هذا الجمل.

ومرة ثانية يصيح سيف منزعجا:

ـ لا.. دعك من جملك العزيز.. فأنا فى سبيله مستعد لشرب



صندوق بالكامل واشتركا الاثنـان فـى ضحكـة طويلـة.. أتبعهـا سـيف بعـدة رشفات من الزجاجة ثم بدأ حديثه قائلا بهدوء:

ـ أتصدق.. أننى ليس لى صديق واحد.

حاول الجمال أن يكون ظريفا وهو يجيبه:

ـ كلهم أعداء.

ـ أبـدا.. لا أعـداء ولا أصدقـاء.. وسـتندهش أكـثر عندمـا تعلـم أنـك الانسان الوحيد الذى شعرت بالأمـان نحـوه بـل وعنـدى رغبـة شـديدة لكـى اخبرك بكل مشاكلى وشؤونى الخاصة أيضا.. و ..

ومع توالى الرشفات توالت الأحداث الماضية على لسان سيف وهـو ينتقل من موقف إلى آخـر بصـدق كبـير وكأنـه يحـدث نفسـه.. بينمـا سـكن الجمال فى هدوء مثـير لا يبـدى رأيـا أو يظهـر تعجبـا مـن تلـك الشـخصية الغريبة بل ظـل ينصـت اليـه بعمـق وهـو يتـابع انفعالاتـه المتوتـرة.. فـرآه ينهض منتفضا ثم يعود إلـى مكانـه جالسـا فـى انهيـار كصخـرة قذفت بهـا الأعاصير من فوق قمة جبل مرتفـع.. ثـم يغيـب مـع رحلـة صمـت طويلـة تظهـر نتائجهـا بوضـوح علـى ملامحـه المكتئبـة. إلـى أن قـال بلسـان أثقلـه كثرة الشرب:

ـ وها أنا يا صديقى كما ترانـى.. لا أعـرف كيـف يكـون قـرارى.. أشعر بأن الدنيا كلها وقفت فجأة فى مواجهتى.. أشعر بأن الناس من حولـى جميعا ينبذونى وينفرون منى.. و ..

ويربت على كتف الرجل مسترسلا فى إعياء:

ـ أنا لست كريها إلى هذا الحد.. أنا انسان طيب القلب.. لم أقدم على شيء إلا بعد تفكير عميق.. كنت رجل أعمال ناجح جدا.. لم أقف فى طريق أحد ولم أسمح لأحد أن يقف فى طريقى.. فماذا إذن؟

قال الجمال متأثرا:

ـ أنت مسكين يا بنى.. ولكن

قاطعه سيف بحدة وقد لعبت الخمر برأسه:

ـ أنا لست مسكينا.. لا تقل هذا حتى لا تغضبنى منك.. أنا أقوى مما تظن ولست فى حاجة إلى أحد.. أنا أريد التحدث مع أى انسان فقط.. حتى ولو كان هذا بالمقابل المادى كما سأفعل معك الآن.

لاحقه الرجل بثبات:

ـ ذلك هو سبب كل مشاكلك.. أنت يا بنى جعلت نفسك كالآلة التى يسمونها "الكمبيوتر".. أصبحت لا تتحرك ولا تتحدث الا بالمعلومات التى تصل اليك.. قد تكون لديك القدرة على تنظيمها وترتيبها.. ولكنك لم تفكر لحظة أن تعيش بمشاعرك.. أن تترك لأحاسيسك ووجدانك الفرصة.. ولكنك للأسف قبرت كل شيء تحت وطأة الأرقام الجامدة لدرجة أنك اكتشفت فجأة بأنك بلا صديق أو حتى عدو.

قال سيف متخاذلا:

ـ ولكنى حسبت لكل شيء حسابه.

رفع الرجل رأسه إلى أعلى ثم قال بهدوء:

ـ ولكنك نسيت الله .. ان للأقدار أحكامها يا بنـى. ثـم كيـف تطـالب الآخرين بالاطمئنان إليك وأنت لا تطمئن إليهم .. كيف تشعر بحبهـم وأنـت بهذا القلب الجامد .. الأشياء يا بنى كلما اشتدت صلابتها كلما سهل كسـرها .. ولكل معدن مطرقته.

ـ أنا أشعر بالاعياء .. لقد توقف عقلـى عـن التفكير وكأنـه اسـتهلك تماماً.

ـ حاول ... حاول ان تعيش بين الآخرين وأن تعتمـد ولـو بـالقليل علـى وجدانك ومشاعرك .. وأنا أؤكد لك ان كل مشاكلك ستجد لها الحل المناسب.

ـ ولكنك لم تخبرنى كيف أتصرف فى هذه الورطة.

ابتسم الجمال بهدوء وهو يقول:

ـ أبدأ بنفسك أولاً .. وأنت تجد ما تريد.

نهض سـيف وهـو يحـاول ان يكـون متماسـكاً ثم مـد للرجل بضـع ورقات مالية:

ـ خذ .. وأشكرك على هذا الوقت .. فلقد كنت فى حاجة إليه.. و ..

قاطعه الجمال بهدوء:

ـ ألم نتفق أن تغير هذا الأسلوب مؤقتا على الأقـل.. وأعلـم انـك لـو

كنت وضعت تحت قدمى أموالك كلها وأنا لست راغبا فى مجالستك فلن أفعل.

لم يستطع سيف أن يخفى نظرة الاعجاب للرجل فأجابه وهو مترددا:

- على الأقل ثمن الويسكى.

ضحك الرجل مقهقها:

- أنا لا أشرب الويسكى.. فأعتبرها هدية منى لك.

خطى سيف تجاه سيارته وما إن استقر وراء عجلة القيادة حتى التفت اليه قائلا:

- أتحضر إلى هنا كل يوم؟

- ليس بالضرورة هذا المكان.. فالأرض كما تراها تفتح ذراعيها للجميع

وبلا تردد استوقفه سيف صائحا:

- انتظر من فضلك.

وخلص ساعته الذهبية من معصمه ومدها اليه مستطردا:

- خذها اليك.. إنها هدية منى فاقبلها.

قلبها الرجل بين كفيه وما إن أدرك انها ذهبية حتى حاول إعادتها بإصرار:

- لا يا سيدى.. يبدو أن الخمر قد صور اليك انها تافهة.. ألا تدرك أنها ذهبية.

ضحك سيف بحب ثم قال:

ـ أنا لست مخمورا إلى هذه الدرجة.. ولكنى أتمنى أن تقبلها منى.. أشعر بأننى لست فى حاجة اليها.

ـ إذن سأضعها عندى أمانـة.. فقد تفيق إلى رشدك غدا وتحضر لاستعادتها.

ـ لا تخش شيئا.. فأنا لا أعرف من أنت حتى الآن.. ولا أريد أن أعرف ولكن ألم تقل لى أبدا بنفسك.. هذه الساعة كانت جزءا من كيانى الذى سأسعى للتقرب معه.

وبدأ يدير محرك سيارته ولكنه لاحظ أن الجمال قد جذب الجمل بعنف حتى أقعده على ركبته وركبه بثقة وقبل أن يبتعد كثيرا صاح به سيف بصوت مرتفع:

ـ أراك ركبت الجمل.

التفت الجمال اليه وهو يزيد من سرعة انطلاقه.. ثم قال بصوته الجهورى.

ـ ألا ترى أن الصباح قد حل.

تحرك سيف بسيارته عائدا إلى حيث لا يدرى.. ثم همس إلى نفسه قائلا بنبرة مؤكدة:

.. حقا.. الصباح قد حل لتبدأ رحلة الأيام.. و ..

انطلق بسرعة فائقة وكأنه يرغب فى اللحاق بموكب الرحلة قبل أن يتحرك.

(٧)

دارت الأرض تحت عجلات سيارة سيف العشرى وهو لا يزال يخترق الطرقات فى اتجاهات مختلفة على غير هدى.. كل شىء من حوله بدا غريبا.. السماء من فوقه كانت تقترب إلى عينيه بسرعة مذهلة وكأنها تسعى اليه هو.. هو وحده لكى تطبق على صدره المختنق.. صورة الجمال لم تفارق خياله لحظة واحدة.. أحس به لا يزال فى حديث معه.. غاب مع دوامات أفكاره مضطرا:

.. كيف استطاع هذا الرجل أن يسلب ارادتى إلى هذا الحد.. أهو بشر أم.. ماذا. هل يمكن أن تكون الحياة على هذه الصورة.. لماذا أشعر بهذا الاحساس الخانق ألست مثل الملايين التى حولى.. أنا شريد.. بل كل مشاعرى توحى بأننى.. طريد.. هذا الاحمق يطالبنى أن اتوقف عن التفكير.. يريدنى أن أعقد صفقاتى وأحدد علاقاتى بعد أن أقدم قرابين مذلتى وانكسارى.. و ..

أطلق زفرة طويلة من صدره أحس بها وكأنها ألسنة من اللهيب المتأجج:

.. ولكنه لم يقل لى هذا.. ولكنى أعتقد أنه يقصده.. قد أكون مخطئا.. لا بل هو وأمثاله تغيب عنهم الحقيقة.. أنهم يعيشون فى وهم كبير.. تحولت أحلامهم وكأنها الواقع.. وواقعهم استقر فى ثبات عميق.. و ..

وارتفع صوته دون أن يدرى وكأنه يؤكد لنفسه:

.. ولكن ليس أمامى أدنى اختيار.. ولن أفقد الكثير إذا حاولت.. بدأ يستعيد شروده.. وكذلك الطريق الذى استقر رأيه عليه.. ولم يمض وقت طويل حتى هدأت محركات سيارته وسكتت حين انطفأت مصابيحها أمام فيلا ناريمان.

تردد قليلا قبل أن يدس المفتاح فى الباب.. تراجع وآثر أن يطرقه برفق لتظهر له ناريمان وفى عينيها فرحة حقيقية عندما واجهته قائلة بنبرة يشوبها العتاب:

ـ لم أتوقع مجيئك.

اطلق نظرة خلفها.. أدرك أنها تستضيف عددا غير قليل فى الداخل.. انتبه إلى صوتها:

ـ ألا تدخل.. سعادتى بقدومك تجعلنى أشعر بأنها ليلة العمر.

ابتسم.. وبدت ابتسامته غريبة عليها.. فقلما عرفت الابتسامة الطريق إلى شفتيه.

ثم فاجأها بأكثر مما توقعت:

ـ أخشى أن اشغلك عن ضيوفك.

جذبته من يده وهى تردد بسعادة:

ـ أنا لا يشغلنى عنك أحد

وصاحت بصوت مرتفع وهى تتقدم به نحوهم:

ـ لحظة من فضلكم.

وأطبق الصمت فجأة على المكان.. ثم قالت بفخر:

ـ أقدم اليكم.. سيف بك العشرى.. زوجى.

وكأنهم فى مواجهة خشبة المسرح فتدافعوا مهللين.. ومهنئين.. بينما أحاطهم سيف بنظرة واحدة شملتهم جميعا.. راوده احساس بأنه يقف وسط عرض للازياء والموضة.. الرجال شديدو التأنق والتحذلق.. بينما كانت النساء تغوص فى بحور عطورهن وملابسهن غريبة الأشكال.. وبدأت التعليقات تتناثر من كل اتجاه.

.. زوجك يا ناريمان هانم أنيق جدا.

.. هذه الوسامة لا نستطيع أن نتحملها.

ثم قال أحدهم مستظرفا:

.. هكذا أنت دائما.. يدك لا تقبض على فراغ أبدا.

ولاحقته واحدة منهن متهكمة:

ـ ما بالنا نحن لا نمسك الا السراب.

ودوت الضحكات المخدرة.. بينما بدأت تقدم لسيف الواحد تلو الآخر ثم تحولت للنساء مستعذبة تعليقاتهن التى أثارت فيها غرورها.. فى الوقت الذى بدا سيف فيه سعيدا متفائلا.. ومرنا.. ولم يمض الوقت طويلا حتى كان بينهم بل أكثر اقترابا من بعضهم لبعض.. يضاحك هذا ويداعب

تلك.. يلقى بالنكات ويمسك بأطراف الأحاديث كلها.. وانقلبت صورته تماما أمام نظرة ناريمان التى كادت تحلق فى سماء أحلامها من فرط سعادتها وهى تراه على صورته الجديدة والتى راقت لها وأضرمت غرائزها بعنف.. ولكن.. سرعان ما استعادت نفسها من دوامة النشوة.. وراحت تراقبه بحذر وهى مذهولة لهذا التغير المفاجئ فى شخصيته.. همست فى صمتها:

.. ماذا وراءه هذه المرة يا ترى.. هل يمكن أن يتبدل حقا.

وبدأت ساعات الليل تزحف مع رحيل الضيوف.. إلى أن ضمهما المكان من جديد..

وبخطوات مترقبة اقتربت منه قائلة:

ـ أنت مرهق تماما يا سيف.. أراك وكأنك لم تنم منذ أيام.

ازدادت تعجبا وحذرا عندما فاجأها قائلا:

ـ لا تقلقى على يا حبيبتى.. فأنا بخير.. ولكنى عاتب عليك كثيرا.

ـ لماذا..

ـ لانك كنت تحرميننى من أصدقائك الظرفاء.

لم تستطع أن تتمالك وهى تردد بوضوح:

ـ أنا لا أصدق نفسى.. أحقا أنت سيف العشرى.. هل رضيت الدنيا عنى أخيرا واعادتك إلى كما أريد.. وكما كنت أتمنى.

ضحك بصوت مرتفع دوت قهقهاته فى أرجاء المكان.. ثم قال وهو ينسحب إلى غرفته:

ـ المسألة أننا لم نكن متفاهمين فقط.. ربما يكون أحدنا هو السبب.. ولكن المهم أننا..

ولكنه توقف عن الحديث عندما رآها تتخلص من ملابسها ولم تبق إلا على القليل جدا منها ثم اقتربت منه بعينين ملتهبتين بغرائزها العنيفة تملؤها رغبة متأججة نحوه وهمست بصوت ضعيف:

ـ وهل.. تفاهمنا الآن.

استسلم لأنفاسها الدافئة لبرهة قليلة قبل أن يجيبها متوترا:

ـ بالطبع.. فانا وأنت نكاد نكون متشابهين فى كل شىء.

رفعت يدها تتحسس وجنتيه وهى تكاد تلتصق به تماما:

ـ أتقسم على هذا.

ـ أنا..

ولكنه لم يستطع أن يكمل حديثه عندما أطبقت بشفتيها فوق فمه وراحت تضغط عليها وكأنها تلتهمه.. ولأول مرة منذ زواجهما تفرض صورة أخيه نفسها على خياله وشعر بها تحول دون استسلامه لمشاعره وبينها.. فتملص منها فجأة بطريقة عنيفة كأنه يدافع عن نفسه مذعورا أمام وحش شرس قبيح المنظر.. افزعها تصرفه وهى تحملق اليه مشدوهة.. ثم

قالت متربصة:

ـ ماذا دهاك.. هل.

ولكنه سرعان ما توازن فى تفكيره وهو يستعيد هدوءه قائلا:

ـ ألم تلحظى منذ قليل أننى مرهق يا عزيزتى.. فلنؤجل هذه الأمور إلى الغد.

لملمت شتات كبريائها وهى تتراجع بخطوة منكسرة.. ثم قالت:

ـ يا ترى.. ماذا يخبئ هذا الغد.

لم يجبها إلا بابتسامة باهتة سكنت فوق شفتيه وكأنها تودعها حتى انصرافها.

وقفت طويلا أمام مرآة غرفة نومها.. تأملت كل شىء فى صورتها.. بدت وكأنها تبحث عن نفسها.. عن كيانها ووجودها الذى تسرب منها دون أن تدرى مستسلما لاحساس جديد وغريب على مشاعرها.. جلست على طرف الفراش فى هدوء ثم سرعان ما نهضت فى اتجاه الشرفة وقبل أن تكتمل اللحظة كانت مرة أخرى أمام المرآة، الملل يطبق على صدرها.. واحساسها بالخوف من المجهول جعلها تقاوم ولكن بارادة واهنة.. تعاند دون مثابرة.. تترقب دون تخطيط.. ادركت بفطنتها بأنها انساقت وراء رغبة يصعب التراجع عنها.. اسقط بين يديها كل إحساس بالثقة والقوة والذكاء.. لم تعد قادرة على أى شىء إلا أن تستسلم

فى رضاء لتلك الرجفة التى تعبث بقلبهـا كلمـا رأتـه أو تذكـرت حديثاً مـن أحاديثه.. أحست لأول مرة فى حياتها أنها فقـدت كـل أسـلحتها التـى طالمـا دمرت بها كل من اعترض طريقها.. أو كأنها ولدت مـن جديـد.. اختلفت نظرتها لكل ما حولها وكان عليها أن تواجه الحقيقة.. حقيقـة الواقـع الجديـد الذى لم يدع لها فرصة الاختيار كالعـادة.. وكأنهـا آثـرت أن تواجـه نفسـها أولا تقديسا لكبريائها.. ولو لآخر مرة.. فهمست إلى أعماقها بهمسة زلزلت كيانها بعنف:

.. نعم أحبه

غاب القمر ولا زالت تستعذب همستها وهى متيقظة فوق فراشـها.. لم ترغب فى النوم كما أنه لم يسع اليها.

اضطربت نبضات قلبها بعنـف عندمـا ترامـى إلـى سـمعها طرقـات خفيفة على باب غرفتها.. نهضت مسرعة.. واستقبلته كما لو كـانت تسـقبل الحياة بأسرها.. وبنظرة صامتة ضمته إلى نفسها وكأنها تستقطب الدنيا فـى صدرها.. بينما وقف سيف العشرى امامها مترددا قبل ان يبادرها:

ـ لم أستطع الانتظار أكثر من هذا.. لقد ظللت طوال الليل أفكر فيك وفيما يمكن أن نتفق عليه.

ذابت كل أنوثتها فوق شفتيها من خلال ابتسامة رقيقة وهى تجيبه:

ـ وانا أيضا.. لم أعد أحتمل المقاومة أكثر من ذلك.. فلقـد امضيـت ليلتى وصورتك لم تفارقنى لحظة.

تلفت بعينين مرهقتين.. ثم قال بلا اكتراث:

ـ هل تسمحين أن نجلس فى الردهة قليلا.. فأنا لى معك حديثا طويلا.. و ..

قاطعته بحنان وهى تفسح الطريق أمامه قائلة:

ـ بل دعنى استقبلك أنا.. أريد أن تشهد حجرتى أجمل لحظة صدق فى حياتى

جلس على مقربة منها.. لم يصمت طويلا حتى بادرها قائلا:

ـ ناريمان.. كلانا كان ضحية لذنوب لم نقترفها.. لقد شاءت اقدارنا أن نقف أنا وأنت أمام منصة الواقع لنصفى حسابات الآخرين.

أجابت بنشوة:

ـ دعك من الماضى.. من الأفضل أن نفكر فى المستقبل.. مستقبلى ومستقبلك.

ـ هذا ما أرجوه بالفعل.. ولكن.. هذا لا يمنع أن نظل أوفياء لبعض إلى الأبد.

داعبت خصلة من شعرها بطرف أصبعها وهى تقول:

ـ لا تكن غامض الحديث يا سيف.. فلقد أصبحنا...

ولكنه يقاطعها بهدوء:

ـ أرغب فى أن نتفاهم.

ـ نحن متفاهمان يا حبيبى.

لم يسترح لتعبيرها قبل أن يقول:

ـ سأكون صريحا معك.. اتركى لى سوسن مقابل أن تستعيدى عادل شرف.

قفزت غشاوة قاتمة فوق مقلتيها.. أحست وكأنها فقدت البصر للحظة ثم همست بخوف:

ـ ماذا تقصد يا سيف.

ـ أقصد أن ننهى هذه الحرب التى بينى وبينك.. ويعود كل شىء إلى مجراه الطبيعى.. تستردين حبك لعادل شرف.. وأسترد أنا سوسن التى كدت أن أفقدها بسبب اطماع واهية.

نهضت منزعجة وهى تردد:

ـ أى حرب وأى حب.. فأنا لم أحب عادل شرف قط فى حياتى ولم يكن بينى وبينه غير علاقة العمل.. أنت حبى الأول يا سيف.. و ..

قاطعها بحدة:

ـ ها انت تعودين للمناورة.. ألم تذكرى لى انكما تعيشان قصة حب سابقة وانك كنت تدفعينه إلى سوسن مقابل استرداد أموالك.. ماذا تريدين إذن.. لقد استرددت أموالك.. فاتركى لى سوسن قبل أن تخسرى عادل

شرف.. يجب أن تعلمى أنه فى طريقه للزواج منها.. يجب أن نوقف هذه المهزلة بأى طريقة.

صرخت فى جنون:

ـ وما شأنى أنا.. فليتزوجها طالما أنهما على وفاق.. أما أنا..

أوقفها عن الكلام وهو يصيح بصوت مكتوم:

ـ والمؤامرة التى كانت بينكما..

ـ لم تكن هناك مؤامرة.. لقد نسجتها من خيالى حتى استبقيك بجانبى.. حاولت ان أجردك من كل سلاح قوى حتى أضمن انك ستظل فى حاجة لى إلى الأبد.. فأنا أحبك.. قد أكون مخطئة فى طريقتى ولكنى لم أقدم عليها إلا بدافع حبى لك.. صدقنى يا سيف.. أنت حبى الوحيد ولم أسلم قلبى إلى أحد من قبل مطلقا.

أحست بالدماء تندفع إلى رأسها بقوة.. وهو يقول بهدوء مثير.

ـ حتى.. لأخى..

أجابت بصعوبة:

ـ تلك ظروف أخرى.

ـ وعادل شرف.

التفتت اليه وكأنها تستجديه:

ـ أنسيت أنه محام.. كيف يمكنه أن يشترك فى مؤامرة أو غيرها.. أرجوك يا سيف لا تجعل الغيرة تدمر علاقتنا.. فانا أحبك..

ضحك بهستريا وكأنه أصيب بلوثة مفاجئة وهو يردد:

ـ الغيرة.. أى غيرة.. أنت تعلمين جيدا مشاعرى نحوك.. كيف اطمئن لانسانة استطاعت أن تدير مؤامرة دنيئة بهذه البراعة.. كيف اسلم مشاعرى لامرأة جردتنى من كل أحلامى وسلبت منى رجولتى وكبريائى.. كيف..

لاحقته وهى تقاوم بكاءها:

ـ سأعيد اليك كل حقوقك.. ولكن اجعلنى أشعر بالأمان تجاهك.. لا تتركنى يا سيف لأننى أحبك.

ـ انا لن أتركك قبل أن انقذ سوسن منك ومن عادل شرف.. كفاها ما ذاقت من عذاب بسببكما.. لن أسمح لكما بمواصلة تلك المؤامرة حتى ولو كلفنى الأمر أن.. اقتلك.. أو اقتله..

فقدت السيطرة على ارادتها واستسلمت للبكاء وهى تردد:

ـ بل سأقتل نفسى إذا تركتنى.. لقد احببتك بصدق رغما عنى.. أصبحت لا أطيق الحياة بدونك حتى ولو كانت البداية غير ما قصدت.

اندفعت نحوه تحاول أن تدفن نفسها فى احضانه واستطردت:

ـ خذ كل شىء.. الأموال والمصنع.. لم أعد فى حاجة اليهما بدونك.. لقد تعبت من مصارعة الدنيا وحدى.. انت أملى الأخير والوحيد



وبكل قوى هوى على وجهها بصفعة كادت تفقـأ عينيهـا.. ثم دفعهـا بعنـف حتى سقطت فوق فراشها.. قائلا بغضب:

ـ أهي مؤامرة جديدة.. لـن ادعـك تسـخرين منـى بعد اليوم.. وانـا احذرك إذا كنت لازلت تكذبين.. ستدفعين الثمن غاليا.. و ..

تحاملت على نفسها وهى تلحق به مرة أخرى قائلة:

ـ صدقنى يا سيف.. ليس بينى وبين عادل غير علاقة عمـل فقـط.. كل ما أعلمه عنه أنه كان يرغب فى الارتباط بسوسن منذ سنوات.. ولكنـه كان مترددا لأنه تصور أنك عقبة كبيرة فى طريقه نحوها.. حتى وأنت فـى غربتك.. أرجوك لا تفسد حياتنا.. فأنت زوجى واريدك بجانبى إلى الأبـد.. أنا لم أكن اتصور أن الامور ستتطور هكذا.. أرجوك امنحنـى ثقتـك لآخـر مرة وسوف لن تندم. وقبل ان يستدير موليا ظهره لها.. قال بثبات:

ـ ناريمان هانم.. لقد قمت بالتكفير عن خطيئة أخى نحوك.. ورضيت سواء كنت مرغما أو غير ذلك.. ولكن يجب ان تعلمـى انـت وشـريكك فـى المؤامرة اننى لن أسمح لكما بتدمير حياة سوسـن علـى الاقل لكـى أكفـر عـن ذنبى وجريمتى أنا نحوها.. والفرصة أمامك الآن لتراجعى ضميرك فالانسان لا يمكن أن يكون شريرا بهذا الشكل المطلق.. فابحثى عن بريـق الخيـر فـى أعماقك.. و .. اتجه بخطوات مسرعة للخارج وهو يردد:

ـ وان كنت أشك فى هذا.. على الاقل مع امرأة مثلك.

(٨)

بدت خطواته متعثرة ومنهكة.. انطفأ فى عينيه بريق النظرة الثاقبة.. توقف برهة أمام مكتب عادل شرف قبل أن يخطو فوق الممر.. حاول أن يكون متماسكا وهو يقترب من موظف الاستقبال الذى أن رآه حتى أفصح عن شعوره نحوه بنظرة مستنكرة ثم تعمد أن يتجاهله بانشغاله ببعض الأوراق التى أمامه.. أيقن سيف على أثرها بأن الرجل لديه التعليمات بكيفية استقباله.. وهو بدوره لم يكن فى حاجة لتلك التوجيهات خاصة منذ موقفه السابق منه.

لم يبدر من سيف ما كان متوقعا فى مثل تلك المواقف.. لم يثر محتجا.. بل لم يطالب بمقابلة عادل شرف واكتفى بأن تجاوزه إلى غرفة الانتظار وجلس بهدوء وسط المنتظرين يتطلع إلى وجوههم فى صمت وتطفل.. كان يغمره أحساس غريب.. تمنى أن تكون ناريمان كاذبة وبأنها شريكة بالفعل لعادل شرف فى كل تصرفاتهما.. تمناه خسيسا دنيئا لم يحترم مكانته كرجل قانون.. رآه فى خياله باكيا متوسلا ونادما على فعلته القذرة.. ارتاح بشدة لصورته وهو موقوف أو ماثل أمام لجنة تحقيق.. أو مفصولا من نقابة المحامين.. لم يعد فى حاجة ليثبت براءته أمام سوسن بقدر ما كان يأمل أن يدين عادل شرف أمامها.

مضى الوقت رتيبا مملا.. ولم تعد الغرفة تضم غيره فقط.. تلفت إلى أرجائها وهو مستعذب وحدته.. تصورهم جميعا قد نفروا من تواجده بينهم.. لم يؤذ مشاعره هذا التصور وكأنه اعتاد عليه.. ولكنه غرق فى دهشته من

تصرف الموظف الذى أقبل عليه بابتسامة عريضة وبادره متأدبا:

ـ ألا ترغب حضرتك فى مقابلة عادل بك.

التفت إلى جانبه كأنه يتأكد من أن الابتسامة له وليس لأحد آخر.. ثم أجاب مترددا:

ـ وهل سمح بذلك.

رمقه الموظف بنظرة متعجبة وهو يقول:

ـ عادل بك لا يعلم بوجودك مطلقا.. لقد ظننتك متفقا معه على موعد ما ولذلك تركتك تنتظر لانك لم تأمرنى بابلاغه..

ترقرقت ابتسامة على طرف فمه قبل أن يردد ساخرا:

ـ أمرك.. على كل حال أنا لم أتوقع غير هذا.. سواء منك أو منه.

أجاب الرجل مضطربا بحق:

ـ ارجوك أن تغفر لى سيادتك.. يبدو أننى لم أحسن التصرف الآن.

لم يجبه سيف وهو يتأهب للدخول إلى مكتب عادل شرف ولكنه كان يتابعه بنظرة فاترة فهو لم يفترض فيه حسن النية.. بل لم يرغب أساسا فى تصديقه.. فكان اعتماده على أحاسيسه وفطنته يفوق كل ردود الأفعال التى أمامه حتى ولو كانت صادقة.

لم يفاجأ عادل شرف بقدوم سيف إلى مكتبه.. بدت أسارير وجهه

جـامدة لا تظهـر أى انفعـالات وكأنـه يلتقـى بانسـان غريـب يـراه لأول مـرة.. بالرغم مـن أنـه أحسـن استقباله فـى حـدود مـا تركتـه الرواسـب السـابقة علـى علاقاتهما.

وقرر سيف أن يبادر بالتحكم فى الموقف.. وقال بهدوء:

ـ بالتأكيد كنت تعلم أننى قادم اليك.

ـ نعم كنت أعلم.. ولكننى لم أكن متأكدا متـى سـتحضر سـواء الآن أم غدا.

شعر بالارتياح لتلك الاجابة وكأنه قد بدأ يمسـك بـأطراف الحقيقـة.. فلاحقه:

ـ إذن اتفقنا..

ـ على أى شىء.

أجابه سيف متمالكا نفسه:

ـ ألـم تلمـح لـى بـأن ناريمـان قـد اتصلـت بــك الآن أو منــذ قليــل واخبرتك بما حدث بينى وبينها.

ـ نعم.. هى اتصلت بى.. وكانت.

قاطعه بحدة:

ـ إذن.. أنا لا اطالبك بشىء غير أن تذكر حقيقه الموقف لسوسن.

ـ أى موقف.

حاول أن يكتم غيظه وهو يكرر:

ـ قلت لك حقيقة الموقف.. اعتقد أن اللعبة قد انتهت ولم تعد فى حاجة للاستمرار فيها.. فأنا أعلم الحقيقة منذ زمن طويل ولكنى كنت متصورا أن الأمور ستسير لصالحى.. أما الآن فالأمر اختلف.. و ..

ووقف مهددا:

ـ وانى أحذرك.. وأطالبك بالانسحاب من حياة سوسن.. والا..

وبهدوء يدعو إلى الدهشة والاستفزاز.. قاطعه قائلا:

ـ سيف بك حاول أن تهدأ.. وأعلم أننى لست من الرجال الذين يخضعون لأى تهديد.. ولولا إحساسى بموقفك لما كنت سمحت لك حتى بالدخول إلى مكتبى

جلس فوق مقعده وكأنه ينصهر.. بينما استطرد عادل شرف قائلا:

ـ أنا بالفعل تلقيت مكالمة من ناريمان هانم.. وكانت فى حالة عصبية مثيرة.. لم أستطع أن أحدد مقصدها.. كانت تثرثر بكلمات غير مفهومة.. قالت أخبره بحقيقة العلاقة التى بيننا.. أنه لا يصدقنى.. أنا أحبه.. كلمات غريبة حاولت أن أفهم منها ما تريده بقدر الأمكان.. وأعتقد أنكما قد تشاجرتما فى أمر ما.. وهذا كل ما لدى من معلومات.

شعر بأنه قد خسر جولته الأولى وهو يقول:

ـ أنت تناور الآن.. ولقد.

قاطعه عادل بشىء من الحدة:

ـ أنا لست مضطرا لذلك.. ويجب أن تعلم أنها الحقيقة.. فأنا لا يربطنى بناريمان هانم سوى علاقة العمل.. والعمل فقط.

ـ وسوسن.

أجابه بثبات.

ـ هذا أمر آخر.. وما شأنه بموضوع ناريمان هانم.

قال منكسرا:

ـ الم تتفق مع ناريمان لكى تستولى على أموال سوسن ثم تعود وتتزوجها وتتقاسمان كل الاموال.. لولا ظهورى فى حياتكما.. هى أبلغتنى بهذا.

انتفض عادل شرف هذه المرة ولم يستطع أن يتمالك نفسه وهو يصرخ فى وجهه:

ـ هذا هراء.. نظرتك القاتمة للآخرين جعلتك تتصور أن كل من حولك مخادع وكاذب.. أنت لا ترى غير الذى تتمناه فى أعماقك.

ومن خلال ثورة عارمة حاول سيف أن يخرسه وهو يتساءل:

ـ وأخى.. الم تكن تعلم بعلاقته مع ناريمان.. وتركتنى أدفع ثمن خديعته لها

قاطعه عادل بعنف:

ـ أصمت.. حتى أخيك تحاول أن تلوث صورته.. أخوك كان من أشرف الرجال كان طاهر النفس واليدين.. و ..

مضت لحظة صمت.. جلس بعدها عادل شرف وراء مكتبه وكأنه يسترجع من ذاكرته أحداث ماضى بعيد.. ثم اردف بهدوء:

ـ نعم كنت على علم بعلاقته مع ناريمان هانم.. لقد كان أخوك رجلا بكل معانى الكلمة.. كان يغدق عليها بالاموال.. أعماله الناجحة كانت توفر له الكثير من المال.. لم يبخل عليها قط فى أى شىء تطلبه.. منحها المال والحب والحنان.. استطاعت أن تحصل منه على الكثير وبالرغم من هذا لم تكتف، وسعت وراء عجوز ثرى وتزوجته فى السر.. وعندما علم أخوك بالامر قاطعها نهائيا.. وشاءت الظروف أن يموت زوجها بعد أشهر قليلة.. حاولت أن تستعيد علاقتها مع أخيك.. ولكنه رفض.. رفض لأنه رجل ولأنه مطعون بجرح الخيانة فى قلبه.

انهار سيف على مقعده مرة أخرى.. وقال هامسا:

ـ ثم ماذا..

واصل عادل شرف بنبرته الجادة قائلا:

ـ لا شىء.. بعدها بقليل استطاعت زوجته الجديدة أن تنسيه آلامه وأحزانه بالرغم من أنها كانت تجهل كل شىء عن ماضيه.. ثم حدث ما

حدث.. وأنت تعلم الباقى..

قال بصوت هزيل:

ـ ولماذا لم تخبرنى.

أطلق عادل زفرة طويلة من صدره وكأنه ينفث عن نفسه عناء ليالى سوداء مضت ثم أجابه:

ـ لسببين.. أولهما لأنك كنت تكرهنى منذ أول لقاء بينى وبينك بدون مبرر، وكنت على يقين بأنك لن تصدقنى.. ثم أننى لم أتوقع أن الأمور ستسير بهذه الصورة الغريبة علما بأننى كنت على استعداد بأن أخبرك بكل شىء بالرغم من وصية أخيك لى بألا أبوح بتلك العلاقة لاحد مهما كان وأن أعتبرها وكأنها لم تكن.. والدليل على هذا أن سوسن لا تعلم الحقيقة حتى اليوم.. و ..

قاطعه بترقب:

ـ والسبب الثانى.

ـ السبب الثانى.. أن.

ولكن سيف يلاحقه قائلا:

ـ دعنى أقول أنا.. لقد قررت أن تصمت لكى يكون الطريق ممهدا أمامك لقلب سوسن اليس كذلك.

أجابه متحمسا:



ـ سوسن ليست صغيرة.. إنها أنسانة قبل كل شىء.. وأنت أول من يعلم أن لديها قلبا يغمره الحب.. والحب وحده فقط.

بدا سيف وكأنه سيغشى عليه وهو يقول فى استسلام:

ـ هل تحبها.

وبلا تردد أجابه:

ـ هذا شانى.

ـ هل تحبك هى..

قال بعد لحظة تردد:

ـ هذا شأنها أيضا.. لقد ظللت طوال الفترة الماضية وأنا صامت أحتراما لمشاعرها لم أحاول قط أن أفرض نفسى عليها.. ولهذا عندما تقدمت لخطبتها لم أكن متيقنا من موافقتها أو رفضها.. وما يرضينى هو أننى سلكت الطريق السليم.

أخفض سيف نظرته إلى الأرض وهمس وكأنه يحدث نفسه:

ـ كم أود أن أصدقك.

نهض عادل شرف وكأنه ينهى المقابلة بتأدب.. قبل أن يقول:

ـ هذا شأنك أنت.. وعلى كل حال هى اليوم فى رحلة مع مجموعة سياح إلى الأقصر وستعود غدا أو بعد غد.. فاسألها إن شئت وأخبرها بما

تشاء أيضا.

وقف بصعوبة وهو يتساءل مستعطفا:

ـ وهل تساعدنى.

أجابه وهو يخفى تأثره:

ـ أنا لن أقول غير الحقيقة.. ثم..

واشاح بوجهه عنه متجها بنظره إلى لا شيء من خلال النافذة وردد وكأنه يحدثها هى:

ـ ثم.. هى وحدها صاحبة القرار فى الأمر.

وبيد مرتجفة مدها سيف تجاهه.. وبلا تردد التقط عادل كفه ومضت لحظات صمت كان بينها حديث طويل لم يسمع أحدهما منه حرفا واحدا.

استدار منصرفا بخطى متهالكة إلى أن توارى وراء الباب.

وكأن للعذاب صيحة أطلقها ليستجمع بها عذابات الدنيا كلها.. فـأتت صاغرة تحيط بفريستها الجديدة.. وكـأن للحقد شيطانا قد نفث من جوفه الأسود رياح الشر وأعاصير الكراهيـة لتحمل سيف العشرى إلى كوكب آخر لا تحيا فوقه غير النفوس المدمرة والبائسة.

ساعات رهيبة قضاها وهو يعلن فى صمت مشاعر الحقد والرغبة الشديدة لتدمير كل ما حوله.. حتى ولو بدأ بنفسه.. بدت صور الاحداث الماضية تتلاحق أمام عينيه يحيط بها الضباب الأسود وكأنه قد قرر أن يلبسها

ملابس الحداد ترقبا لليال سوداء قادمة سوف يتولى قيادتها نحو الآخرين.

تقوقعت الصدمات المتتابعة فى أعماقه.. لاول مرة يشعر بأنه صاحب حق.. بل وأيضا مغلوب على أمره.. إحساسه بالذنب تجاه أخيه فاق صدمته من موقف ناريمان.. تكالبت عليه الاحزان.. سمع بوضوح لعنات أمه وهى تلفظ آخر أنفاس حياتها.. راقب نظرة أخيه الحزينة وهو يشفق عليه من هذا المصير.

راودته فكرة مجنونة لاقتناء مسدس يقتل به رأس الافعى.. ناريمان هانم.. بحث فى أعماقه عن وسيلة للحصول على هذا السلاح.. لم تطل حيرته كثيرا حيث قفزت إلى ذهنه صورة الجمال.. شعر بالارتياح للفكرة ولم يتباطأ فى تنفيذها.

انطلق بسيارته بسرعة كبيرة.. كان يعلم هذه المرة إلى أين هو ذاهب.. وعند وصوله إلى هضبة الأهرام أوقف محرك سيارته وهبط منها بلا تردد.. لم يتسلل إلى أعماقه احساسه بالخوف كالمرة السابقة.. كأنه يعلم كل شبر فى الصحراء التى يقف فوقها.. استطلع بنظرته المكان.. القمر يبتعد رويدا مستسلما للسحاب الكثيف والمنطقة حوله تزداد قتامة وظلاما.. بدت خطواته ثقيلة وفى كل مرة يقاوم صعوبة قدميه وهو يخلصما من الكثبان الرملية.. لا أحد حوله.. الصمت يطبق على كل جانب.. الليل بدا موحشا مخيفا.. الرياح تئن فى حشرجة ضعيفة.. حاول أن يصيح بأعلى صوته.. أن يصرخ لعله يجد من يرشده إلى طريق الجمال.. أو إلى أى شىء.. ولكنه تراجع إرهاقا قبل أن يكون خوفا.

وفى اليوم التالى عند عودته لم يكن الصباح أكثر حظا من ليلته الماضية التى قضاها هائما بلا جدوى.. فى محاولته الثانية، كان الزحام شديدا.. والجمال تلهث فى كل اتجاه بعضها فى لحظة ركوع والبعض الآخر فى طريقها إلى ذلك.. الوجوه كلها تكاد تتشابه.. خيبة الأمل كانت تلاحقه كلما حاول أن يقترب من أحدهم وكأنه رجله الذى يبحث عنه كأن ما كان ليس إلا وهما أو شبحا من أشباح الاساطير.

قرر ان يعود.. ولكن كان قراره أضعف بكثير من رغبته الخفية لمتابعة أحد الجمالين وهو يهرول وراء جمله الذى حمل فوق ظهره فتاة شقراء اختلطت تأوهاتها بصرخاتها.. بينما الرجل يلهث وراء الجمل وهو يكاد يسقط من الاعياء.. ضغط سيف العشرى على سرعته وانطلق بالسيارة يتابعه حتى لحق به عن قرب.. وما إن أزداد اقترابا منه حتى استوقفه بإشارة من يده قائلا:

ـ توقف.. أرجوك أن تقف.. أنا سيف العشرى.. ألا تذكرنى.. و

.. التفت الجمال نحوه وهو لا يزال يلهث وراء جمله.. صاح قائلا:

ـ ماذا تريد يا رجل.. انتظر حتى يأتى دورك.

لم يتمالك سيف نفسه وهو يترك سيارته ويهرول وراءه على قدميه وصرخاته تدوى بقوة:

ـ انتظر أنت.. ألا زلت لا تذكرنى.. أنا..

التفت الرجل نحوه بعدما شعر بغرابة الموقف.. واستدار تجاهه

وهو يربت على رقبة الجمل غير مبال للفتاة.. وقال:

ـ ماذا تريد يا رجل.. و..

وقبل أن يستنفر غضبه لاحقه سيف العشرى قائلا:

ـ أنا سيف العشرى.. وقد جئتك منذ..

قاطعه الجمال قائلا:

ـ نعم.. أنا أذكرك.. وساعتك لا زالت معى وها هى.

ودس يده داخل جلبابه .. ثم اخرج الساعة الذهبية واردف:

ـ كنت اعلم أنك ستعود لاسترداد ساعتك الذهبية ولقد وعدتك بإننى سأحتفظ بها لحين عودتك.

قال سيف مشدوه:

ـ لم أبحث عنك من أجل الساعة.. ولكننى جئت أبحث عنك لأنى فى حاجة اليك

اقترب الجمال أكثر تجاهه وهو يقول:

ـ ماذا تريد إذن..

ـ أريد مسدسا.. أريد أى سلاح قاتل استطيع أن..

قاطعه الرجل قائلا:

ـ إذن.. أنت لست فى حاجة إلى.. أنت فى حاجة إلى مجرم أو قاتل.. أنت فى حاجة إلى قاطع طريق وأنا..

ثم توقف الرجل عن محادثته وانتبه إلى الفتاة وراح يحدثها بالفرنسية ببضع كلمات ثم التفت لسيف قائلا:

ـ خذ ساعتك.. وابتعد عنى.. وياليتك تبعد عن المنطقة كلها..و..

وربت على كتفه بقوة مستطردا:

ـ أنت أخطأت الطريق يا بك.. سامحك الله لقد ذكرتنى بولدى.. لابد وأنه مثلك الآن طريد بلا جريمة.. ووحيد بالرغم من أنه وسط الكثيرين من أمثاله. وقبل أن يحاول سيف أن يجيبه اضطر للتوقف عندما صاحت الفتاة تثرثر بلغتها معلنة عن غضبها مما دفع الجمال للهرولة من جديد حتى عاد بها من حيث بدأت.. وسيف يراقبه وهو يجذب القيد الذى يحيط برقبة الجمل ليجبره على الركوع.. وما كاد ينتهى حتى لحق به قائلا:

ـ أرجوك.. أنا فى حاجة اليك.. سأدفع لك ما تريد.. خمسمائة.. ألف أو..

قاطعه بحدة:

ـ ولو مليون جنيه.. قد أقدم لك الخير مجانا أما الشر لن أفعله ولو منحتنى أموالك وأموال الدنيا كلها..

ـ إذن أرشدنى لأحد غيرك.

قال الرجل ساخرا:

ـ ألدركت أنك لست فى حاجة الى.. أنت تبحث عن الشر.. .. وامتطى الجمل بخبرة كبيرة وانطلق مسرعا به دون أن يلتفت لصيحات سيف وهو يرجوه بأن ينتظر.

بدا منكسرا عند عودته إلى المنزل.. الاحباط يملأ كيانه وهو غارق فى حيرته اذهلته المفاجأة عند دخوله إلى الشقة.. كانت سوسن جالسة فى هدوء وكأنها تترقب مجيئه فى أى لحظة.. كاد يستسلم لمشاعره المندفعة وأن يضمها إلى صدره.. يقبلها أو يبكى فوق صدرها.. ولكنه تمالك نفسه أمام نظرتها الجامدة وأساريرها الساكنة وكأنها بلا حياة ولا نبض.

وازداد توترا عندما بادرته قائلة فى هدوء:

ـ كنت أتوقع منك أن تدرك بأن الموقف مختلف الآن.. ألا ترى أن المفروض أن تدق جرس الباب قبل اقتحامك هكذا.. على كل حال هذه فرصة لكى استلم منك مفتاح الشقة.

تراجع إلى الوراء وكأنه تلقى لكمة عنيفة.. ثم قال متلعثما:

ـ أنا.. آسف.

أشارت اليه ببرود:

ـ تفضل.

كاد يلتصق ظهره بالباب وهو يردد بصدق:

ـ أرجوك.. أنا أشعر بالاختناق.. هل تسمحين بمرافقتى لأى مكان خارج المنزل.

همهمت:

فى الحقيقة أنا متعبة.. لقد وصلت الآن فقط من رحلة طويلة و..

قاطعها بتوسل:

ـ أرجوك.. امنحينى الفرصة.. ولتكن الأخيرة.

وافقته على مضض.. جمعتهما دقائق صمت طوال قيادته للسيارة.. ثم انتهيا عند كازينو كثيف الأشجار.. واستقرا كل فى مواجهة الآخر.

بدا وكأنه آلة تسجيل قد ضغط على محركها وراح يسرد لها كل شىء بأدق التفاصيل وبصدق فاق توقعاته هو نفسه.. كانت الساعات تمضى وكأنها لحظات قد غافلت الزمن لتتعايش مع الحقيقة لأول مرة.

تسرب إلى صدره إحساس بالارتياح.. والأمان.. عندما لاحظ تجاوبها وانفعالها مع كلماته وهى تنصت اليه بتأثر كبير.. مما شجعه لأن يبادرها قائلا:

ـ والآن.. أترك لك حرية الحكم على.

أجابت بما لا يعكس تعبيرات وجهها:

ـ أنا لا أملك هذا معك.

سارع متوددا اليها:

ـ أنت تملكين كل شىء.. سعادتى واستقرارى.. أنا لا أطلب أكثر من ثقتك.

ـ وماذا تفيدك.

ـ سنبدأ من جديد.. سأحاول أن أكون مختلفا كما تريدين.. ولكن فقط أرجوك امنحينى الفرصة .. حتى ..

قاطعته بجدية :

ـ تقصد تبدأ من جديد ... وهذا طبيعى ومن شأنك.

ـ سوسن .. لا تجعلى الغضب يسيطر على مشاعرك.. أنا فى حاجة لوجودك معى.. فلا تدمرينى من خلال لحظة عناد.

كان هدوؤها مثيرا وهى تقول :

ـ أستاذ سيف .. يبدو أن موقفى غير واضح بالنسبة لك.. أما.. أما إذا شئت أن تعرف رأى فيمكننى أن أقوله لك.

لم يتفاعل كثيرا وهو يجيبها:

ـ ليتك تفعلين.

فأجابته بلا تردد:

ـــ أن تعود اليها .. أقصد ناريمان هانم.. أنت تعلم أنها أحبتك بصدق.. قد تكون مخطئة فى طريقة تمسكها بك.. ولكن ذلك لا يمنع أنها أحبتك بالفعل وأنت فى حاجة لأن تشعر بحبها.. على الأقل لكى تتعلمه.. و.. قاطعها مذعوراً:

ـ ماذا تقولين.. أنت تطالبينى بهذا بعد كل ماذكرته لك.. كيف تفكرين بهذه الطريقة... سوسن أنا أحبك أنت.. صدقينى.. لقد أخطأت .. ولكنى لم أضمر لك الشر أبداً.. كنت سأعود اليك حتما.. أنا أحبك .. و..

أوقفته بإشارة من يدها:

ـ من فضلك.. لا تحاول فكل محاولاتك مصيرها الفشل.. احتفظ بهذه الكلمات الرقيقة لمن يستحقها.. وأنا أرى أن ناريمان هانم أحق الناس بكلماتك وبحبك إذا كان الحب عرف الطريق إلى قلبك.

ارتفع صوته دون أن يدرى:

ـ كيف .. وأخى .. ومشاعرى نحوك.. و ..

ـــ وأحب أن أبلغك بأننى متنازله عن حقوقى عندك.. المهم أن تدرك جيداً أننا لن نكون على طريق واحد أبدا.

هوت كلماتها عليه كالصاعقة.. غاب فى لحظات صمت كأنه يلملم من خلالها شتات كبريائه الذى فوجىء به ممزقاً أمامها.. ثم همس بترقب:

عادل شرف .. اذن.

أجابت بثقة:

ـ لا تقحم اسم انسان عظيم مثله فى مثل هذا الحديث.

قال ببلاهة :

ـ وأنا .. ألست..

لاحقته وكأنها تنقض عليه:

ـ يا أستاذ سيف كيف أئتمنك على حياتى وأنت لم تكن أمينا على أموالى

خفض نظرته فى ارتباك واضح ثم فوجىء بها تنهض بإ

صرار قائلة:

ـ من الأفضل أن نفترق هنا.. فأنت أمامك رحلة طويلة لتعود إلى ناريمان هانم

وقبل أن يتفوه بحرف واحد . أردفت قائلة:

ـ المفتاح .. يا سيف بك.

وبيد مرتجفة ناولها المفتاح كالمسحور وهو يخفى بريقا لمع فجأة بين جفنيه.. بينما تجاوزته هى منصرفة بلا وداع.

(٩)

لا شيء يدعو لليأس.

عبارة رددها سيف العشرى وهو فى طريقه إلى ناريمان.. استقر فى أعماقه احساس بأنه لا يزال مسيطراً على الموقف.. فإذا كانت ناريمان تحبه أو تعشقه إلى هذا الحد فلماذا لا يحاول من جديد.. وقد تفيده المحاولة.. كما أنه بخبرته الطويلة استطاع أن يتلمس نظرة الحب المطعون فى عينى سوسن.. وقد يعيد الجولة معها أيضا.. وربما يفوز بها.

اطمأن كثيراً إلى هذا المنطق الجديد.. وبدأت الآمال تتراقص فى خياله.. الفرصة أمامه لأن يعيش حياة طبيعية.. أن يمهد للاستقرار فى حياته سواء إن كانت سوسن أو ناريمان.. المهم البداية.. أن يصبح له أصدقاء بأى وسيلة بالمصالح بالعلاقات.. أو بالمال.

و.. مع بداية الغروب وصل أمام منزل ناريمان .. كانت الحركة غير طبيعية حول المكان.. وجوه لم يألفها وسيارات متراصة بصورة تدعو للريبة.

تقدم بحذر إلى الداخل.. كاد أن يتراجع.. تصورا منه أنه قد أخطأ المكان.. جال بخاطره بأنها قد باعته لأناس غرباء.. ولكنه تسمر فى مكانه

عندما لمح عادل شرف بين المجموعة أدرك من فوره بأن هناك صفقة يتم التعاقد عليها.. وانكمشت كل تصوراته عندما فاجأه أحدهم قائلاً:

ـ من أنت؟

لم يلتفت للرجل.. توجه بحديثه إلى عادل شرف قائلاً بتهكم:

ـ أهى مؤامرة جديدة يا عادل بك.

وقبل أن ينتظر منه إجابة لاحقه الرجل بحدة.

ـ ألم يصلك سؤال.

التفت بتذمر نحوه.. وما كاد ينهره لطريقة حديثه حتى سارع عادل شرف بالتدخل قائلا :

ـ إنه سيف بك العشرى يا حضرة الضابط.

أبتلع ذهوله وهو ينصت للرجل الذى يتساءل من جديد:

ـ أنت إذن زوجها.

أجاب بتردد وكأنه قد نسى قصة هذا الزواج.

ـ أجل .. هل هى بخير.. أقصد هل بلغت عن سرقة الفيلا.. أو..

اقترب منه عادل شرف بهدوء.. ثم قال هامساً :

ـ ناريمان هانم.. متورطة فى عملية الإتجار بالعملة.. وقد حضرت بناء على استدعاء منها بصفتى محاميها.

أفاق من شروده على حديث ضابط المباحث وهو يقول:

ـ وطبعاً سيادتك كنت على علم بهذا .. وربما كنت شريكا لها.

أجاب بفزع حقيقى :

ـ أنا .. لا .. أنا لا أعلم شيئا .. و ..

قاطعه عادل شرف وهو يرمقه بنظرة تحمل أكثر من معنى يدركه:

ـ لا تخش شيئا يا سيف بك.. ناريمان هانم نفت عنك أى تهمة وبرأتك تماماً.

جرت الدماء فى عروقه وهو يتساءل بلهفة:

ـ وأين هى الآن .. أقصد .. هل ضبطت متلبسة .. أم.

أجابه عادل شرف وهو مهموم:

ـ نصف مليون دولار .. وما يعادل مثل هذه القيمة عملات أخرى متعددة .. و ..

تدخل ضابط المباحث وهو يقترب من سيف قائلا:

ـ مما يثير الشك أن كل شىء مسجل باسمها.. الأموال فى البنوك حتى المصنع المرهون لأحد البنوك والمشاريع الأخرى وذلك على غير العادة بالنسبة للذين يتورطون فى كل هذه الجرائم.

قال سيف ببرود :

أى شك.

سارع الضابط قائلا :

ـ أنت مثلا .. التحقيقات أثبتت أنك تنازلت لها عن نصيبك فى المشروعات القائمة بينكما.. وأعتقد أنك فعلت هذا لكى تبدو فى الصورة لا تملك شيئا.. وذلك تحسبا لموقف كهذا فلا تخسر كثيرا.. وهذا ما يشير بأنك الذى كنت تقوم بالمهمة وقد وقعت هى فيها.

التفت سيف نحو عادل شرف متسغيثاً:

ـ ألم تقل لى إنها اعترفت بكل شىء وبأننى لا علم لى وغير متورط معها.

لم يجبه.. واتجه بحديثه للضابط متسائلا:

ـ سيادتك لك رأى آخر.

أجاب وهو يتفحص وجه سيف:

ـ من حسن حظه أننى لا أملك دليلاً ضده لكى أحيله إلى النيابة.

ارتخت أسارير سيف قبل أن يقول:

ـ هل يمكن التكهن بمصيرها؟!

قال الضابط بلا مبالاة.

ـ بادىء ذى بدء .. مصادرة كل أموالها.

ـ وأموالى.. كيف سأحصل عليها..

انتبه اليه قائلا:

ـ ماذا قلت؟

تراجع سيف بخطوة للوراء قبل أن يقول:

ـ لا شىء .. لم أقل شيئا.

وفى هذه اللحظة ظهرت ناريمان برفقة مجموعة أخرى من الرجال وقد تقدم أحدهم للضباط وقال هامساً:

ـ لم نجد شيئاً آخر.

وبمجرد أن رأته لم تستطع أن تتمالك نفسها وتركت مدامعها تنساب بهدوء.. ثم اقتربت نحوه وهى تملأ عينيها منه.. وقالت:



ـ سيف .. لقد كنت فـى أشـد الحاجـة اليـك.. ولكنـك صممـت علـى الذهاب.. ربما لو كنت مكثت معى ما ورطت نفسـى فـى هـذا الأمـر.. لقـد كنت..

فقاطعها فى محاولة لتهدئتها:

ـ لا داعى الآن لمثل هذا الحديث .. و..

التفت نحو عادل شرف ثم أردف:

ـ أنا على يقين بأن عادل بـك سيظل بجـوارك حتـى النهايـة.. فـلا تخشى شيئا.

لاحقته من خلال حشرجة صوتها :

ـ وأنت

ـ أنا .. أنا لا أعرف مصيرى.. لم أتخذ قرارا حتى الآن.

قالت والانهيار بدأ يدب فى كيانها:

ـ أتتركنى فى محنتى.. حتى بعد أن علمت بقـوة وصـدق حبـى لـك.. و..

فوجئت بالضباط يقاطعها وهو يدفعها برفق أمامه قائلا:

ـ من فضلك.. يمكنه أن يطلب مقابلتك لاستكمال هذا الحديث.

ولكنها تصلبت فى مكانها وقد فقدت السيطرة على نفسها وراحت تبكى وهى ترجوه:

ــ أرجوك يا حضرة الضابط.. دقيقة واحدة.. قد لا أراه مرة أخرى.

وقبل أن توجه حديثها لسيف مرة أخرى قاطعها الضابط بإصرار:

ـ يا هانم لن ننتظرك طويلاً.. اذا كانت بينكما خلافات فلتنتهيا منها فيما بعد

وكأن طوق النجاة قد ألقى على سيف فجأة وسارع مؤكدا على حديث الضابط.

ـ أجل .. سأحاول أن أراك فيما بعد.

قالت بعد أن غابت فى عينيه من خلال نظرة طويلة:

ـ لا أمل .. فأنت لن تتغير أبدا.. أنا متأكدة تماماً بأننى كنت أعيش فى وهم كبير.. يبدو أننى قد خدعت نفسى بحلم متصل .. أنت لا تبحث إلا عن نفسك ولا..

ولكنها أمسكت عن الكلام عندما تجاوزها سيف فى هدوء مما أثار دهشة الجميع .. بينما تقدم عادل شرف نحوها قائلاً:



ـ ناريمان هانم.. أرجوك تمـالَكِ عواطفك فـأنت فـى حاجـة لهدوء أعصابك.

وكأن بكلماته هذه قد ثقب جدار البركان المتأجج فى صدرها.. وبـلا مقدمات اندفعت صارخة تجاه سيف العشرى وهى تصيـح بهسـتريا أفقدتهـا الكثير من وقارها.. وراحت تتلعثـم بكلمـات غير مترابطـة مـا بيـن البكـاء وسيل اللعنات.. وكأنها تسعى لأن تدمره فى لحظة نهايتها حتى تروى ظمأ حقدها عليه.. وتوالت كلماتها قائلة:

ـ أنت تظن أننى فقدت كل شىء.. أبدا لن يحدث هذا.. سـأوكل عن نفسى أكبر محامين فى البلـد.. لن أجعلك تهنـأ قط.. تريـد أن تتركنى لأننـى أصبحت كما تظن بلا مال.. تريد أن تلعب لعبتك مع فتـاتك الصغيرة.. لـم أر فى حياتى رجلاً أكثر وقاحة منك.. أنت شيطان فى صورة انسان.. أنـت تعلم جيدا أن فى امكانى أن أدمرك كما دمرت حياتى.. و..

وسقطت مغشيا عليها وارتطمت فى طريقها بالفازة التى كانت فـوق المائدة نتيجة لسقوطها.. واندفع الرجال يسبقهم عادل شرف ليحملوها فوق المقعد تمهيداً لاستعادة وعيها.. وبأطراف أصابعها تحسست قطـع الزجـاج المتنـاثرة حولهـا، وبسـرعة خاطفـة التقطـت واحـدة منهـا وشـرعت تمــزق شـريانها بقسـوة ووحشـية غريبـة وتكـالبت الأيـادى عليهـا حتــى أوقفتهــا.. فاستكانت والنزيف يندفع كالشلال من معصمها.



دقائق عصيبة.. بالرغم من قلتها.. مضت وسط اضطراب مؤقت حتى حضرت سيارة الاسعاف وتمت الاسعافات الأولية لها.. ثم حملت على النقالة وهى فى شبه غيبوبة إلى مصير مجهول.

وكأن الأمر لا يعدو أكثر من لقطة سينمائية تابعها سيف مشدوها.. أو كأنه يتعايش مع قصة يرويها له شخص آخر. حيث انتبه أخيرا من ذهوله واستجمع شتات فكره وتساءل ببلاهة :

ـ ماذا يحدث.. أقصد ماذا حدث؟

ولم يجبه أحد .. غير أنه تلقى نظرة قاسية من عادل شرف وهو يرافق جسد ناريمان الممدد فى استرخاء استعدادا لدخولها سيارة الاسعاف.. ولم يستطع سيف أن يتجاهل الموقف أكثر من ذلك وكأنه أراد أن يثبت تواجده بأى صورة .. ليس المهم لمن.. ولكن المهم أن يكون موجوداً فلحق بهم عند الباب الخارجى واندس بين الرجال حتى وصل إليها.. وبنبرة باردة كأنها آتية من عالم آخر على استيحاء:

ـ ناريمان .. ناريمان.

وبضعف شديد التفتت اليه بوجهها المشوب بالاصفرار.. وما إن لمحته بطرف عينيها الشاحبة حتى تحاملت على نفسها بصعوبة وبصقت وهى تقول بوهن:

ـ كم أكرهك.

ثم غابت عن وعيها قبل أن تغيب عنهم داخل السيارة.

وكأنه أفاق لتوه من كابوس مخيف كاد يطبق على صدره ويخنق نبضاته.. وجد سيف نفسه وحيداً مرة أخرى بعد رحيل الجميع بما فيهم عادل شرف.. تراجع إلى داخل الفيلا وهو يسير بخطوات مترقبة.. خائفة.. وكأنه يتوقع ظهورها أمامه فجأة.. استطلع الحجرات الواحدة تلو الأخرى بغير هدف إلى أن دخل غرفتها مطمئنا واقترب من دولابها الذى تبعثرت حاجياته نتيجة للتفتيش الدقيق الذى قامت به المجموعة السابقة.. وبلا تردد تناول صندوقا خشبياً أطلت منه بعض الأوراق وكأنها تدعوه لأن يتفحصها ثم جلس بهدوء متكئا على مسند الفراش.. وأدرك من فوره أنها الأوراق والصور التى كانت تجمع بين ناريمان وبين شقيقه.. أطال النظر إلى صورة أخيه وقد اختلطت مشاعره تحت رغبات متعددة..كما لو كان يريد أن يسمعه اعتذاره وأسفه لأنه ظن به الظنون فى لحظة ما.. وتارة أخرى يقربها إلى وجهه كأنه يهمس اليه بأنه قد انتقم له من المرأة التى خدعته.. ورويدا سحبته موجة الذكريات إلى شاطىء واقعه، ليرى نفسه بوضوح لأول مرة.. وحيدا .. ضائعا.. ومكروها.. تعمق فى نفسه إحساس بأنه كائن غير مرغوب فيه.

انتفض منفزعا وكأنه لدغ من عقرب شرير مثله عندما تذكر موقف ناريمان الأخير منه .. فلقد كانت بالنسبة اليه الورقة الأخيرة التى انتوى أن يقدمها لأيامه القادمة ولكن.. حتى هى لفظته وكأنها عندما بصقت عليه كانت تطرده من أعماقها.. كما طردته سوسن من حياتها.. وطردته أمه من قبلهما.

ألقى بنفسه فوق الفراش داخل حجرته.. راودته رغبة لأن يفتح نوافذها ولكنه تراجع بائسا بعدما تملك منه الاحساس بأنه منبوذ من كل شيء.. حتى من النسمات الرقيقة والتى تصورها أعاصير جامحة تسعى لأن تطرده هى الأخرى من منطقتها الآمنة. أو التى كانت آمنة قبل عودته من الغربة.. تلصص بنظره إلى السماء من خلال النافذة وهو راقد كما هو.. تصورها تموج وسط لهيب متأجج تحذره من البقاء تحتها.. حتى أغاريد الطيور وصلت إلى مسامعه وكأنها لعنات ثائرة مطالبة بالرحيل.. و..

انتبه إلى رنين التليفون.. مد يده يتناول السماعة وهو هادىء تماما.. كان عادل شرف هو الطوف الآخر والذى همس إليه بصوت يغلفه الحزن قائلاً :

ــ سيف بك .. البقية فى حياتك .. لقد ماتت ناريمان هانم فى المستشفى.

أغلق جفنيه بعد أن أغلق الخط التليفونى دون أن يتفوه بكلمة واحـدة مستسلماً للنوم فى ظروف أغرب من حياته نفسها.

وفى ظهيرة اليوم التالى كان سيف العشرى يطرق باب مكتب عادل شـرف وهـو ممسـك بحقيبتـه السامسـونيت.. توقـف برهـة عندمـا فوجـىء بوجود سوسن داخل المكتب ولكنه أخفى توتره بسرعة تسبقها خبرتـه.. ثـم قال:

ـ هل يمكننى الدخول؟

وبأسارير جامدة أجابه عادل شرف:

ـ تفضل يا سيف بك.. هذا مكتبك.

وقبل أن يجلس فى مواجهة سوسن بادرته هى قائلة:

ـ أسفت كثيراً لما حدث لناريمان هانم زوجتك.

رمقها بنظرة مكتئبة قبل أن يقول :

ـ لم أحضر لكى أتقبل العزاء من أحد .. ولكنى جئت لأودعكما.. فأنا راحل.

تجاهلت سوسن غلظة اجابته.. وتساءلت بفتور:

ـ متى؟

قال بلا تردد :

ـ الآن.. موعد الطائرة بعد ساعة تقريبا.

حاول عادل شرف أن يخفف من حدة المواجهة.. تدخل قائلا:

هل فكرت جيداً فى قرارك؟

لم يجبه.. وتحول تجاه سوسن قائلاً:

ـ سأرسل لك فيما بعد كل المبالغ التى اقترضتها منك.. لقد عاهدت أمى بذلك.

وقبل أن تبدى اعتراضها.. وقف سيف العشرى متأهبا للانصراف.. فلاحقه عادل شرف قائلا بصدق:

ـ على الأقل دعنا نرافقك للمطار.

قال بجفاء:

ـ هل عندك شك فى سفرى؟

تمالك عادل شرف وهو يسبقه للباب مرددا:

ـ ألا تكف عن ظنونك.. نحن فى لحظة وداع.

كان الصمت هو رفيقهم الرابع طوال الطريق.. وقبل أن يدخل الدائرة الجمركية استوقفه عادل شرف قائلا:

ـ يا سيف بك.. لا تنس أن لك أصدقاء هنا.

اقتحمت مخيلته صورة الجمال وهو يقول.. إن ولدى لن يعود لأنه يعلم أننى لن أقبله.

ترقرقت ابتسامة على شفتيه وهو يضغط على كفه مودعا.. ثم تحول إلى سوسن قائلاً:

ـ هل ستزورين قبر أمي؟

ثم خطا بعيدا عنهما قبل أن ينتظر منها اجابة، وقف عادل وسوسن يراقبانه على البعد .. وقد دخل السوق الحرة واشترى ساعة لنفسه.. ثم التفت اليهما مودعا بيده. وقبل أن يستدير فى طريقه إلى الطائرة متواريا وسط الجموع الراحلة.. نظر إلى ساعته الجديدة بدقة.

الساعة الخامسة وثلاث دقائق.